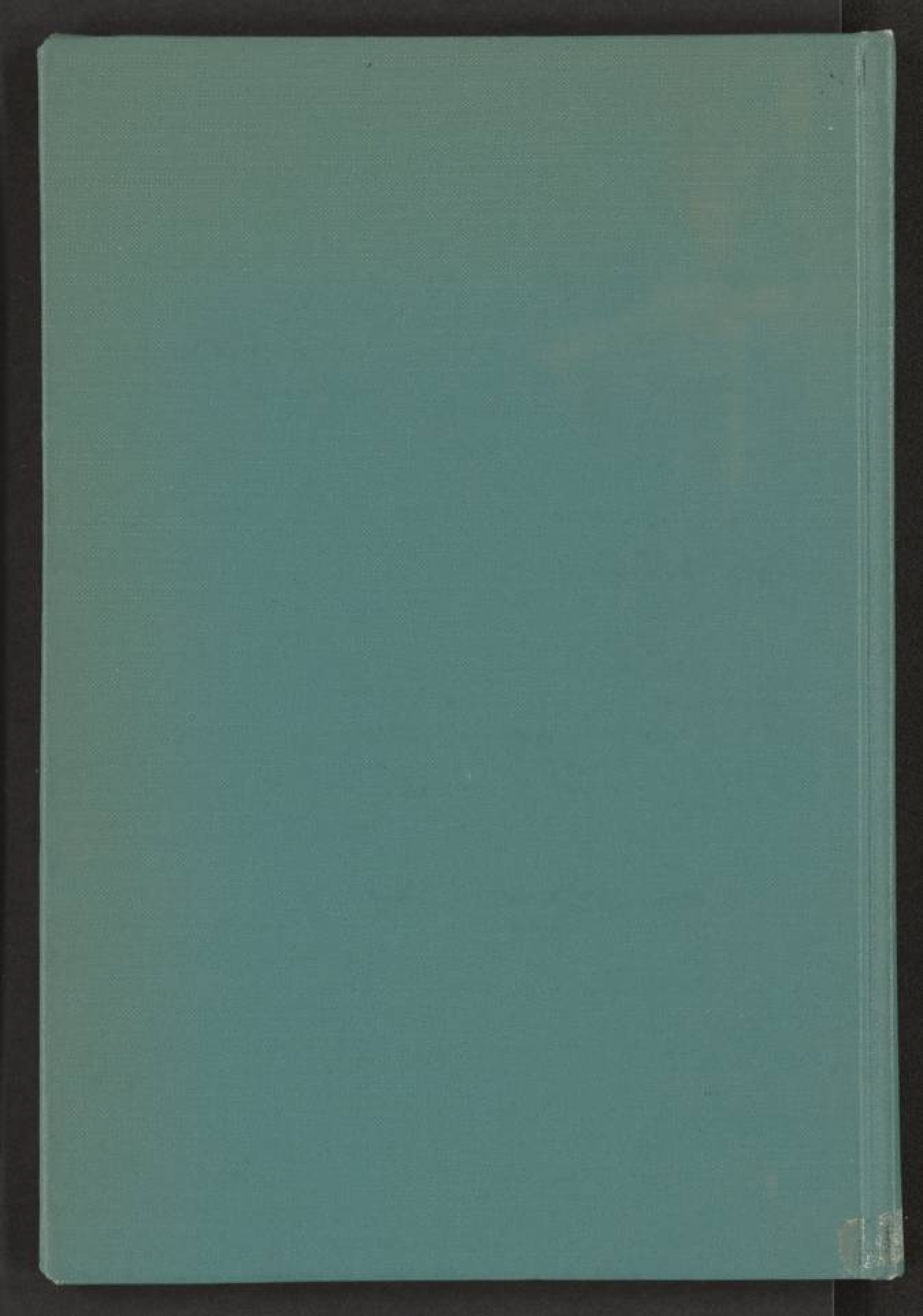
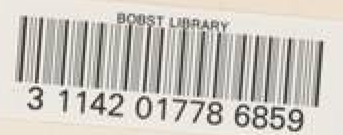
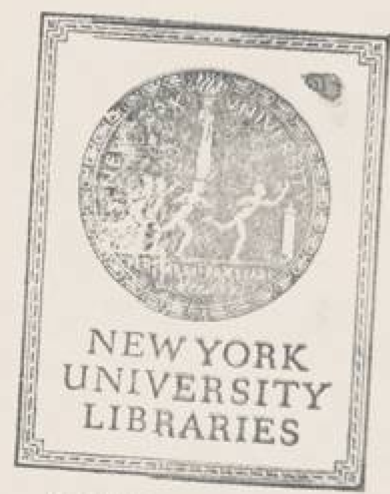



BOBST LIBRARY
3 1142 01778 6859


NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

جميل الزهاوي

al-Hani, Nasir

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

Muhadarat 'an Jamil al-Zahawi

محاضرات
عن
جميل الزهاوى

حياته وشعره

ألقاها
ناصر الحانى

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٤

١٩٥٤

مطبعة دار الهنا بشارع الحجاز ببولاق مصر

مقدمة

هذه جملة محاضرات عن شاعر العراق (جميل صدقى الزهاوى) ، ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية فى معهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية ، لا أدعى لها شمولا لجوانب (الزهاوى) كافة ، لكنها مدخل قصدت منه إيقاف الطلبة على فنون شعره ، وطابع هذه الفنون ، وتأثره بأحداث زمانه ، وألحقتها بمختار من شعره . وعسى أن ينهض بعض الطلبة الذين أعجبوا به لدراسة الجوانب الأخرى منه كنزعته الفلسفية والعلمية .

ويسعدنى أن تتاح لى فرصة التعرف على أساتذة كنت توّاقاً إليهم ، وأن ألتق بطلبة كانوا مثالا للجد والحرص ، وكان لما أثاروه من نقاش وتساؤل أثر فى هذه الدراسة.

وأسال الله أن يوفقنا جميعاً لخدمة أمتنا وقرائنا .

القاهرة ١٦ — ١ — ١٩٥٤　　　　ناصر الحانى

الفصل الأول

حياة الزهاوى وشخصيته

— ١ —

عمّر الزهاوى طويلا (١٨٦٣ — ١٩٣٦) وعاصر تطوراً امتد إلى البلاد العربية عامة والعراق خاصة ، وشهد أحداثاً هزت الإمبراطورية العثمانية والعالم كله . وأسهم بمعمعان الحياة وتيارها الذى انطلق فيه العرب يعملون لفك قيود ثقيلة كبلتهم بها سياسة حارت على ذويها ، وعلى من وقفوا أنفسهم لحمايتها والذود عنها .

فلقد شهد أذيال احتلال امتد أكثر من ثلاثة قرون ، رزحت فيه البلاد العربية كلها تحت سطوة الإمبراطورية العثمانية ، وإن كانت الفترة التى عمرها أعنف وأعسر فترات ذلك الاستعمار ، ولا عجب إذا تذكرنا أن الرجل عاصر السلطان (عبد الحميد) الذى لم يغب بعد عن خواطر أبناء هذا الجيل جوره ، وفتكه بكل حر ، وإرهاقه كل مناضل .

وعاصر — بعد ذلك — عهد الدستور فى الدولة العثمانية ، ثم عهد الاحتلال البريطانى فى العراق . كما أنه شهد — عندما قارب الستين من عمره — ولادة المملكة العراقية ، وعاش نحو خمسة عشر عاماً من سنى حياته الأخيرة تحت ظل الحكم الوطنى فى العراق .

وقد تولى جميل الزهاوى فى كل عهد من هذه العهود الأربعة بعض الوظائف العامة :

فنى العهد الحميدى : عين عضواً فى مجلس معارف ولاية بغداد (١٨٨٦)

ثم مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً للقسم العربى من الجريدة الرسمية التى كانت تصدر باسم « الزهراء » (١٨٨٨) . كما أنه عين عضواً فى محكمة استئناف بغداد (١٨٩٠) .

ثم — بعد أن سافر إلى العاصمة استانبول — عين واعظاً عاماً فى اليمن عندما رأت الحكومة العثمانية أن توفد إلى هناك هيئة إصلاحية ، بغية استمالة الأهالى ووضع حد للثورات التى كانت تتوالى فى تلك الولاية النائية (١٨٩٧)

وفى عهد الدستور العثمانى : عين أستاذاً لفلسفة التشريع الإسلامى فى « المدرسة الملكية » فى استانبول ، ثم أستاذاً للمجلة فى مدرسة الحقوق ببغداد.

وانتخب نائباً عن لواء المنتفك سنة ١٩١٤ ، وعن لواء بغداد سنة ١٩١٥ ، واشترك فى اجتماعات ومذاكرات « مجلس المبعوثان العثمانى » عدة سنوات..

وفى عهد الاحتلال البريطانى للعراق : عين عضواً فى مجلس المعارف ببغداد ، ورئيساً للجنة تعريب القوانين العثمانية .

وفى عهد الحكومة الوطنية بالعراق : عين عضواً فى مجلس الأعيان (مجلس الشيوخ) ، وبقى فى هذا المنصب أربع سنوات (١٩٢٥ — ١٩٢٩) .

° ° °

عاش الزهاوى معظم سنى حياته فى بغداد . إلا أنه سافر عدة مرات إلى استانبول : كانت الأولى منها سنة ١٨٩٦ ، والأخيرة سنة ١٩١٥ .

وسافر مرة إلى اليمن ، ومرة إلى مصر ماراً بسوريا ولبنان ، كما سافر مرة إلى طهران ، وذلك لتمثيل العراق فى مهرجان الفردوسى سنة ١٩٣٥ .

لم يكن الزهاوى يعرف لغة أوروبية . إلا أنه كان متضلعاً فى اللغتين الشرقيتين ، الفارسية والتركية . ولا شك فى أنه استقى معظم ثقافته العلمية والفلسفية من الكتب الغربية المترجمة إلى التركية .

° ° °

كان الزهاوى واسع الخيال وشديد الحساسية . كما كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكثير الإعجاب بشعره . ولذلك كان ينفعل من الانتقاد ، ويعتبره بمثابة الاضطهاد . وكان يعتقد أنه « ضائع » و « مضطهد » فى بلاده . حتى أنه كان يتوهم فى بعض الأحيان أن حياته معرضة إلى الخطر .

وهذه الحالة النفسية جعلته قلق البال وشديد التألم على الدوام ، وحملته — مرة — على مغادرة العراق إلى سورية ومصر ، غاضباً ؛ ثم اضطرته إلى العودة إليها — بعد مدة قصيرة — مع خيبة أمل ممزوجة بألم مرير .

٭ ٭ ٭

نظم الزهاوى كثيراً من الأشعار ، والقصائد والرباعيات فى مواضيع متنوعة . ونستطيع أن نقول ، إن قريحته الشعرية تناولت كل شىء تقريباً : من السياسة والاجتماع إلى الغزل إلى العلم والفلسفة — كل شىء تحول عند الزهاوى إلى موضوع لرباعية قصيرة أو لقصيدة طويلة .

ومما يلفت النظر أن أشعاره تدل على اتجاه ثابت فى تفكيره المتعلق بشئون العلم والاجتماع والفلسفة ، إلا أنها لا تدل على استقرار فى نظره إلى شئون السياسة . بل بعكس ذلك تدل على «تقلب فى الرأى» ، تحت تأثير العواطف العارضة . لأن الباحث يجد بين أشعار الزهاوى مدحاً للإنكليز من ناحية وتنديداً بالظلم والطغيان من ناحية أخرى ؛ كما يجد نقداً عنيفاً لحكم الأتراك من جهة ، وتحسراً مريراً على عهدهم من جهة أخرى .

أجل تقلب الزهاوى غير مرة فى آرائه السياسية ، إلا أنه فى أمر الإصلاح الاجتماعى ، وفى قضية سفور المرأة ، وفى أمور الفكر بوجه عام ، سار فى اتجاه واحد ثابت على الدوام ، ولم ينحرف عنه أبداً .

– ٢ –

إذن ، فإن العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن الحاضر . . . وما حدث خلال ذلك من الأحداث فى العراق وفى البلاد العربية وفى الدولة العثمانية أو فى العالم كله ... هذه كانت البيئة المعنوية التى عاش فيها ، وتأثر بها ، ونظم عنها جميل صدقى الزهاوى .

ومما يلفت النظر أنه كان فى بغداد عندما قامت الثورة العراقية ضد الإنكليز ، ولكنه لم ينظم أو يكتب عنها شيئاً .

ولذلك خرج الزهاوى من الثورة مغضوباً عليه مطعوناً فى ولائه لقومه ، لأنه كان قلقاً طوال الثورة التى تكاتف فيها العراقيون ، وقادها كبار رجال الدين والفكر ، وفزعت إليها جماهير الشعب تلبى داعى الوطن . ولم يكن الزهاوى الذى قعد عن الثورة ليلوذ بالصمت بل جره الخطل أو كره العثمانيين – كما ادعى – إلى أن يحبذ للبلد حكم الإنكليز ، فنظم قصيدة (١) يمدحهم ويثنى على سجاياهم ظلت مصدر طعن وتندر عليه طوال حياته . وليس لنا أن نرمى الرجل بما رماه به أبناء زمانه ونغلو فى تجريحه ونقده بعد أن جرت عليه قصيدته البلاء . وظلت تحز فى نفسه طوال عمره .

«ولما ذهبت إلى الآستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصرية . وقد ذهبنا فى حرب الإنكليز والبوير جماعة من الترك الأحرار تتمنى للإنكليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد ، يريدون بذلك أن يعضدهم الإنكليز فى طلبهم الدستور . وكنت نظمت لهذه الغاية قصيدة أمدح فيها الإنكليز واشدو بقوة أسطولهم . وقد نشرت فى أول ديوانى (الكلم المنظوم) ، وإلى الآن يعيبنى ناقدى على هذه القصيدة ، ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ، ويحتل العراق ، هذا لم يخطر فى بال احد . (٢)

---

(١) عنوانها (ولاء الإنكليز) نشرت فى ديوانه (الكلم المنظوم) ص ١٤ — ١٦

(٢) رسائل الزهاوى : الكاتب المصرى مجلد ٤ عدد ١٥ سنة ١٩٤٦

وقد شهد الزهاوي الأحداث التي انتابت العراق الحديث ودولته الفتية، إذ عاصر فيصلا والأزمات التي مر فيها، وعاش في عهد المعاهدات التي وقعت مع بريطانيا حتى عام ١٩٣٠، كما بارك استقلال العراق بدخوله عضوا في عصبة الأمم عام ١٩٣٢، واسهم مع المسهمين، بالمطالبة بتنظيم الحياة النيابية والحزبية في البلد، ومساواة المواطنين في الحقوق، ودافع عن المرأة طوال عهد الملك فيصل، ونعى (فيصلا) مع من نعوه من شعراء العربية عام ١٩٣٣، وبارك (غازي) وحكمه، ولكنه لم يعاصر الرجل طويلا، فقد اشتد عليه مرضه وتوالت علله التي لازمته منذ صغره، فمات وهو في الثالثة والسبعين عام ١٩٤٦.

* * *

تلك الحقبة الطويلة، والأحداث الجسام التي شهدتها البلاد العربية، هي مسرح الزهاوي. منها استوحى شعره وبرجاتها تأثر وانفعل. وكان تأثره — إذا استثنينا بعض نزواته — صادقا تأتي عن إدراك ووعي، فما أكثر ما مرت الأحداث على بعضهم وكأنها لم تمر، ولك أن تستعرض سيرة حفنة من أدباء العراق وشعرائه سبقوه، لتعظم الرجل وترى تحرره وجرأته، وانطلاقه مع تيار الحياة الجديدة. فلقد أقام الأدب، كما قال هو عن نفسه، (على أنقاض عبد الباقي العمري، والأخرس، وكلاهما من الشعراء الوازنين المقلدين، فلا جزالة في ألفاظها ولا ابتكار في معانيها). (١) وهو صادق في حكمه على الشاعرين، وأنت صادق إذا رحت في حكمك هذا إلى الشعراء الذين عاصروهما. فلقد ظلوا يتلهون بالمدح، وقلما انصرفوا عنه إلى سواه. وظلوا يقفون أثر الولاة الأتراك ومن والاهم، يشيدون بهم ويكبرون مقامهم، ولم تكن للشعر صورة خلا تقليد الموروث عن كبار شعراء العربية. وحذو قوافيه وتكرار معانيه.

(١) رسائله في الكاتب المصري ص ٦٣٩

لم يسهم الشعر بمعمعان الحياة ، ولم ينزل إلى خلق الله ، بل ظل يستوحى طبقة علا شأنها ، ويحذو العمود الشعرى المألوف ، وإن شئت فقل ظل أسود مع الأيام السود التى رزح فيها العراقيون والعرب عامة .

ولو قارنت (الزهاوى) بسلفه ، لبان لك التقارب بين ثقافته وثقافتهم ، ولربما رأيتهم يفضلونه تضلعاً من العربية ومعرفة بها وبعلومها ، التى كان يتثقفها الناشئة أو آنذاك . ولا علىّ أن أتركه يتحدث عن ثقافته الأولى وتربيته .

« ذهبت إلى الكتاب فى الخامسة من سنى أو الرابعة ، وبقيت فيه بضع سنوات بليداً لا أتقدم ولا أهتم بغير اللعب أو نظم الأشعار الفارغة من المعانى بعد أن وجدتها وسيلة لنيل الدراهم الموصلة إلى الحلوى ، ولكننى بعد ما انتهيت من جزء (عم) ، أخذت أخطو خطوات واسعة، فتعلمت قراءة جميع الأجزاء الباقية فى شهر واحد ، ولما شببت شرعت أقرأ على بعض العلماء من تلامذة والدى مبادىء الصرف والنحو والمنطق وشيئاً من البلاغة، فلما رأيتهم لا يشبعون جشعى ولا يقنعونى بأجوبتهم على أسئلتى تركتهم ورجعت إلى والدى ، وقرأت عليه ديوان المتنبى وتفسير البيضاوى وشرح المواقف(١) » . ولا نظنه ثقف من العربية فى الدراسة النظامية إن صح التعبير أكثر من هذا ، ولكنه لم يقنع بما عنده شأن غيره ، فقد أقبل على الشعر التركى يقرأه ويتأثر به ، وكان معجباً بشاعر الأتراك الكبير (نامق كمال). والتفت إلى العلوم العصرية يقف عندها ويثقف ما يقع له منها . (وأول مجلة لذتنى مطالعتها الأجزاء الأولى من المقتطف ، وأول الكتب فى العلوم العصرية هى مؤلفات (فانديك) فى الفلك وغيره ، وكتابان ضخمان فى الفسيولوجيا والتشريح مصوران للدكتور (ورتبات) ، وكتب أخرى تركية فى العلوم العصرية » .

---

(١) الرسائل : الكاتب المصرى ص ٤٥٨

ولم يكن يعرف لغة غربية، ولكنه قرأ كثيراً مما ترجم عن الغرب. قرأ (البؤساء) (لفكتور هوجو) فى التركية ومئات الروايات المترجمة إلى التركية والعربية (لأناتول فرنس) و (شكسبير) و (جوته) و (تولستوى) وغيرهم. (١)

كان لاتصال (الزهاوى) بالأدب الغربى، على قلته، ولتأثره بالأصول العلمية التى عرفها أثر فى تحفزه ويقظته. وكان (للأستانة) وعهده الذى قضاه فيها أثر آخر، نشله من تيار جرف سابقيه وباعده عن التقليد، فسمعناه ينحو نحوه الناهض، ويردد نغمات جديدة وألحاناً مستوحاة من الواقع الجديد والحركة الناهضة، فقارع ظلم (عبد الحميد) ونشر القصائد فى هذا، وبارك الدستور.

وربما كان أول شاعر فى العربية يدافع عن المرأة، ويحدث ضجة كبيرة فى مجتمع أكله الجمود على الموروث، ولم يثنه عن رأيه فيها ما جرته عليه دعوته من المصائب.

« وفى ولاية ناظم باشا كانت جريدة (المؤيد) فى مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة. وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويقذفوننى بالسب واللعن. والمهذبون من الكتاب فى مصر وسوريه يناصروننى، ولكن التعصب فى بغداد كان يومئذ ذا صولة، فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى إرضاء للرأى العام، ثم جاء (جمال باشا) عوضاً عن ناظم باشا فأرجعنى إلى وظيفتى ». (٢)

« وعزلت من وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى عن حقوق المرأة، وأنى أنا الذى نظمت قصة (امرأة الجندى)... يوم لم يكن فى بغداد شاعر

---

(١) رسائل الزهاوى : ص ٤٥٩

(٢) رسائل الزهاوى : ٦٤١

يُصرّف الشعر فى إصلاح المجتمع». (١) وهذا كله لم يثنه عن دعوته، فقد استنهض القوم ودعا إلى التعليم والتهذيب والحرية، وحث على العلم، وأوغل فى هذا الميدان، فنظم فى بعض الأصول والنظريات العلمية مالا يحتمله الشعر ولا طبيعته. ولكنك عاذره إذا عرفت غرضه، فلقدأراد لبلده نهضة شاملة، وعز عليه ألاّ يرى مايحقق لقومه حلمه، فارتضى كل دعوة فى الشعر وحمله ماقد لا يلتئم وإياه.

«آلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية، فأنى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئاً استولى علىّ اليأس، وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الأسى وكلما خضع للظلم شرقت بدمعى». (٢)

والغريب أن الزهاوى قد عاش عمره منغصاً، وظل تحت أنواع الحكم التى مرّ فيها شاكيا يكثر الشكوى، باكياً قد يطيل البكاء:

أنا لاقيت فى بغداد ضنكا أى ضنك
طالما كنت بها أعتزل الناس وأبكى (٣)

ولا ينكر أن نزعته إلى التجديد فى الاجتماع قد سببت حنق الكثيرين عليه، وأن بعض آرائه لم يحتملها أبناء زمانه فجرت عليه ما نغصه، فلقد اتهم بوطنيته — كما مر — وأنكر عليه القوم دينه ورموه بالإلحاد وكثر حاسدوه ومناوئوه، وتقولوا عليه ما قد لا يكون فيه، حتى ذهب بعضهم إلى تشبيهه (بالمتنبى) فى هذا المجال. (٤)

العلم يا بلدا نشأت بأرضه ضاعت لديك حقوقه وحقوقى

---

(١) رسائل الزهاوى: ٤٦٣ وروفائيل بطى: الأدب العصرى ج ١ ص ٩

(٢) رسائل الزهاوى: ٤٦٤

(٣) اللباب ص ١٢٣

(٤) لغة العرب ج ٦ السنة السادسة ص ٤٦٤

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم   هذا جزاء الناصحين فذوقي
قالوا أطردوا الزنديق من أوطانكم   ماذا يخاف القوم من زنديق
قالوا اقتلوه إنما هو مارق   ماذا يضر المؤمنين مروق
أنا لست زنديقاً ولا أنا مارق   حتى يحل لظفركم تمزيق (١)

ولم يكن الزهاوي ليركب سبيل النواسي (٢) وأشياعه فيضحك من الحياة ويسخر بها إذا اعتورته الهموم، ولكنه قطب دون الدنيا، وظل إلى التشاؤم أميل، وأكثر الشكوى. ومن يدري فلعل لعلله التي لازمته طيلة حياته وآلامه التي لاقاها أثراً في ذلك (٣)، فصيرت منه قلقاً جزعاً كئيباً أو مكتئباً، وربما كان في هذه السيرة العامة مبرر لتشبيهه بأبي العلاء المعري كما ذهب بعض النقدة. (٤)

ولا تظنن الزهاوي مغالياً في دعواه بأنه يكثر البكاء أو أنه يقول قالة شاعر. فلقد عرف عنه أن دموعه طيعة، وأنه يبكي إذا ضجر وثار، ويبكي إذا ابتهج وسُر. وعرف عنه بعض مناوئيه ومغيظيه هذا؛ فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه مايبعث الفرح اليه حينا وما يغيظه ويبعث الثورة في نفسه أحيانا. وظل يعيش في عالم خاص به — ولا سيما في شيخوخته — ويرى أن قومه لم ينصفوه وهو الذي لاقى مالاقى دونهم وبشر بما بشر لإنهاضهم. (٥)

---

(١) اللباب ص ٢٧

(٢) له قصيدة عنوانها (في جنب النواسي) ادعى أنه تمت إليه. ولسنا ندري في الزهاوي ما يبرر هذا الانتساب خلا شاعريته:

أود لو تحفروا   جنب النواسي قبري
إني أمت إليه   وإن تأخر عصري   (اللباب ٣٨)

(٣) الهلال ج ٧ مارس سنة ١٩٣٦

(٤) الرسالة عدد ١٩٢ سنة ١٩٣٧

(٥) انظر رأي بعض معاصريه فيه، جريدة (الاستقلال البغدادية) عدد ١٣٢٨ الصادر في ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٢٨

طالما قد لاقيت منكم جفاء أنا والشعر والنجار الأصيل
من قديم يا أهل بغداد أنتم أمة عندها يضيع الجميل (١)

☆ ☆ ☆

وكم لى فى المواطن من عدو رمانى بالسهام فما أصابا
أقول لهم خذوا فى السهل سيروا وخلوا لى الوعورة والهضابا
فليس لكم لدى الإدلاج حول على أن تسلكوا الطرق الصعابا
فراحوا ينشرون الكذب عنى ومن سفه يكيلون السبابا
ولم يأبه بما قالوه إلا غبى أو سفيه قد تغابى (٢)

وقد يوغل فى ذم البغداديين وبغداد ، وقد يجوز عليهم وعليها ، ولكنه الزهاوى ذو النفس الثائرة والروح القلقلة . فتراه طوراً يتشبه بنوح ويدعو الله ليهلك قومه ، وطوراً يصور قومه مردة يكيدون للحق ويبرمون به .

رب إن المنافقين ببغدا . . . د كثير وقد أتوا أضرارا
رب إنى نصحتهم أن يثوبوا ثم إنى نذرتهم إنذارا
رب إنى دعوت قومى ليلا ثم إنى دعوت قومى نهارا
إن قومى قد فسدوا لا تذر رب على الأرض منهم ديارا
إن تذرهم يا رب فى غيهم لا يلدوا إلا فاجراً كفارا (٣)

☆ ☆ ☆

لقد كنت فى درب ببغداد ماشيا وقد أوشكت شمس النهار تغيب
فصادفت شيخا قد حنى الدهر ظهره له فوق متن الطريق دبيب
عليه ثياب رثة غير أنها نظاف فلم تدنس لهن جيوب

---

(١) اللباب ص ٢١
(٢) اللباب ص ٢٦٣
(٣) اللباب ص ٢٣

تدل غضون فى وسيع جبينه — على أنه بين الشيوخ كئيب
يسير الهوينا والجماهير خافه — يسبونه والشيخ ليس يجيب
أحالوا عليه بالحصى يرجمونه — وفى الرأس منه شجة وندوب
له وقفة يقوى بها ثم شهقه — تكاد لها نفس الشفيق تذوب
فساءلت من هذا فقال مجاوب — هو (الحق) جاء اليوم فهو غريب
فجئت إليه ناصراً ومسليا — ودمعي لاشفاقى عليه صبيب
وقلت له (إنا غريبان ها هنا — وكل غريب للغريب نسيب)(١)

أعرفت الشيخ؟ إنه الزهاوي البرم الثائر نفسه ، أحسن التصوير وأبدعه وإن جار على قومه ، وظل هذا شأنه طوال الحكم الوطنى وحتى وفاته ، ولعلك ملتمس أسباب هذا فى نفسية الزهاوى وما انطوت عليه ، فالرجل — كما هو معروف بين معاصريه — شديد الإعجاب بشعره ، لا يرضيه شيء خلا المدح والإطراء . وكأنه إذ تلمذ لأبى العلاء المعرى (٢) كما يدعى وظل يلهج بجوانب الحياة المظلمة ، أبى إلا أن يتعلق ببعض خصال (أبى عبادة البحترى) ، فشعره — شأن البحترى — مصون عنده ، أكبر من النقد والنقدة ، وهذا دفعه إلى أن يتوهم الناقد عدوا يريد أن يزرى به . وإذا ضمك مجلسه ولم تعظمه وتبالغ فى إعظامه سئمك وملّك ، وكان رواده يعرفون عنه هذا ويعرفون كيف يثيرونه إذا أرادوا ألا يشفقوا عليه . ولك أن تستعرض (اللباب) و (ديوان الزهاوى) لتقف على برم الرجل بالنقد

---

(١) اللباب ص ٢١ — ٢٣

(٢) قال يخاطب أبا العلا :

وإن أكبر شيء فيك يعجبنى — سخرية من تقاليد وعصيان
وأنكروا فيك إلحادا وزندقة — وعلّ ما أنكروه فيك بهتان
إنى تلمذت فى بيتى عليك وإن — أبلت عظامك أزمان وأزمان
أصابنى فى زمانى ما أصابك من — حيف فما رد هذا الحيف إنسان

(الأوشال ص ٦٦)

وضيق صدره به . وقد تكون قصيدته (أنقد أم حقد) ، خير دليل على هذا ، وهى على طولها حسنة التركيب ، تحس الثورة واللوعة فى كل بيت منها :

ملأوا صدور الصحف حقدا   والحقد قد سموه نقدا
أنى ألتفت أرى أمامى من رجال السوء ضدا[1]
ألفيت قوما يحقدون على الذى للفضل أبدى
ورأيت ناسا يحسدون النجم أن يزداد وقدا
ووجدت حداً[1] للولاء ولم أجد للبغض حدا
قالوا دخيل فى القريض فما ، أجاد ولا أجدا
قالوا صغير لا يعد من الفحول ولن يعدا
قالوا إلى الاحسان منه غيره فى الشعر أهدى
وله جراءة فيلسوف يوسع الأديان جحدا

* * *

يلغو اللسان بباطل   والوجه صلب ليس يندى
كلم عنتنى غير أنى   لا أحاول أن أردا
لم أشك وخزتها وإن   كانت سهاما أو أشدا
لو ساعدتنى صحتى   لاخترت عن بغداد بعدا
مالى أقيم ببلدة   ألقى بها الأعداء لدا
يخشون سيرى فى البلا   د كأننى سأقود جندا

* * *

إن الخطوب نزلن بى   فتركننى عظما وجلدا
قد ذقت صابا فى حيا   تى بالعراق وذقت شهدا
ولقيت فيها قد لقيت   بموطنى نحساً وسعدا
ورأيت بعد المد جز   را ثم بعد الجزر مدا

---

(١) اللباب ص ٦٨

وربما بان لك تناقضه واضطرابه النفسى فى غلوه بالبرم فى حياته، وتمنيه لو أن أيام الأتراك ممتدة، ودولتهم باقية متوهما — وهو الذى شكا أيامهم السود — أن النعيم قد ظلله أوانذاك :

أين عزى فى دولة الأتراك — أنا مما فقدته أنا باكى
كنت بالأمس راضيا عن حياتى — وأنا اليوم من حياتى شاكى
أكثرت من حزن عيونى بكاها — يا عيونى فى الحزن ما أبكاك
ليس حقا ولا قريبا إليه — أن يقاس الباكى على المتباكى
إننى اليوم فى بلادى أسير — ليت شعرى متى يكون فكاكى

وله شعر كثير هذا طابعه، وقد يحملك على الاعتقاد بأن الزهاوى أخطأ السبيل وجاز المألوف، وقد يحملك على اتهامه بعدم تعلقه بوطنه أو إنصافه إياه، والواقع أن تلك الصفات النفسية فى الزهاوى وضيقه بما وصل إليه قومه وما يريده لهم وما يتوقعه منهم، عوامل أدت به إلى هذه الثورة الساخطة، وكثيرا ما يأخذه الندم فيؤوب كالخاطىء يستغفر :

وطنى الذى فيه ولدت — هو الذى فيه أبيد
عنه على شغفى به — أناى وترجعنى العهود
أبعدت عن وطنى وها — أنا ذا إلى وطنى أعود
فشهقت فى أحضانه — أبكى كما يبكى الوليد
إنى إذا احتاج العرا — ق فبالحياة له أجود
إن لم أذد أنا عن حقو — ق للعراق فمن يذود

* * *

بعد أن هزنى إليك النزوع — كان حتما على هذا الرجوع
قد تسابقنا فى الإياب سراعا — أنا والشعر والهوى والدموع
أنت يا ليلى أنت بهجة دنيا — ى التى أزهرت وأنت الربيع
حدثينى عما جرى لك بعدى — إننى يا ليلى إليك سميع

كلما أبصرت عيوني مغنى   مثل مغناك فاض منها الدموع

***

وكنت هبطت قبل سنين مصرا   فلم أهدأ وفضلت الايابا
ذكرت مواطني وذكرت أهلي   وليلى والصبابة والشبابا
وقلت لقد نأت بغداد عني   فليت الدهر يمنحني اقترابا
ولو أني رجعت إلى بلادي   لقبلت المنازل والترابا
شربت من النوى لشفاء نفسي   شراباً ثم لم أسغ الشرابا

وإذا كان هذا الجانب من شخصية الزهاوي وبالا عليه، صيره جزعا قلقاً، فإنه مدّ إلى شاعريته وأثار فيه مادفعه إلى النظم المتصل والنتاج المتعاقب. وليس من ينكر ما أسداه للشعر والأدب عامة من تجديد وتطور؟!

ولم يكن حظه بعد موته بأحسن منه في حياته، فلقد وجدنا أكثر الناشئة يعافونه ولا يقبلون عليه، وطلعت علينا كتب ومقالات تزري بما أنتج، ولكن الزهاوي شأن الفحول مثار جدل ونقاش، ومثار نزاع كبير، فإذا عقه هذا الجيل، فلعل الأجيال الجائية ستعرف له ما أسداه، وستقرأ فيه كثيراً مما ضيّعه التاريخ ودوّنه أدبه من أحداث تاريخنا الحديث وتطور أدبنا.

الفصل الثاني

الشـــعر عنده

ليس لك أن تجور على الزهاوى فتقبل عليه تطلب أصولا للشعر عرفت لها امتداداً مع أفلاطون وأرسطو أو مع قدامه والعسكرى أو غير هؤلاء. فلقد كان شاعراً قبل أن يكون فيلسوفاً ، وكان شأن الشعراء المجددين يقوم له الرأى فينظمه ، وإن كان يختلف كثيراً عن الجيل الذى سبقه . ويمكن أن يقال إنه عرف للشعر رسالة واضحة ، وقلب تفاصيل هذه الرسالة وأكثر تردادها . ويبدو تأثره بالتيارات الفكرية التى وقف منها فى رأيه بالشعر ونزعته إلى التجديد فى معانيه وألفاظه وصوره وخياله ، وقد أفلح فى تجديد بعض هذه الأصول وإن انزلق وهو يجد وراء هذا إلى ما شوه شعره وأبعد رونقه ورواءه أحيانا . وأنت غافر هذا إذا عمدت إلى مقارنة الرجل بجيل سبقه . وقدتكبر ما أسداه للشعر ونهضته وما شقه من طريق كان هو أحد أركانه والطليعة إليه .

وقد فصل رأيه فى الشعر بكلمة نشرها فى مجلة (لغة العرب) (١) ثم صيرها مقدمة لديوانه (اللباب) ، وكان كثيراً ما يفعل فعلة الأوربيين فينشر رأيه فى الشعر فى مقدمة دواوينه ، وربما كانت مقدمته (لديوان الزهاوى)(٢) أجود ما كتب فى هذا المجال .

ولا أريد أن أناقش الزهاوى بما زعم أنه من رسالة الشعر ، بل أتركه يتحدث إليك نفسه :

---

(١) عنوان المقال (كلمة فى الشعر) نشره عام ١٩٢٨ ، وأنظر سحر الشعر ص ٣٧

(٢) طبعة المطبعة العربية بمصر عام ١٩٢٤ .

« الشعر ما ينظمه الشاعر من إحساس يجيش فى نفسه بأوزان موسيقية تهز السامع .

إذ الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقا أن يقال له شعر

ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد ، حر لا يتقيد بالسلاسل والأغلال وهو أشبه بالأحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء ، يتجدد — وأحر به أن يتجدد — بحسب الزمان . ويرتقى من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب . وأنزع أن أمشى بشعرى فى سبيل الحياة الطبيعية متجنبا المبالغات وكل ما ليس حقيقيا ، وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثها الأبناء من الآباء ، فيقول ما يشعر به هو لا ما يشعر به آباؤه . فكلما رجعت إلى نفسى أحيد به عن الطريق الذى يمشى عليه غيرى معتقدا أن الطبيعة أولى بالتقليد .

وما زلت فى جو من الفكر طائرا ومن عادتى ألا أطير مع السرب

وقد جردته ما استطعت من الصناعات اللفظية والخيالية الباطلة ، وحرصت على أن يكون منطبقاً على الواقع ، خلواً من الاغراق ، ماشيا مع العصر . فحسبى أن توحى الطبيعة إلى فأقول ما أقول :

حبذا الشعر إذا كا ن مشيرا للشعور

وإذا كان نزيهاً كأغاريد الطيور

ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة ، عند الانتقال من فصل إلى آخر كما فعلت فى عدة قصائد . .

وأجيز للشاعر أن ينظم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها . . . الجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة ، ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما الناظر .

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى

إن كان عندك شىء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجديد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى شعورهم ، فإن لكل أمة شعرا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى كالموسيقى . ألم تر أن كلا من الشعر العربى والشعر الغربى إذا ترجم إلى الآخر فقد كثيرا من روعته ، اللهم إلا إذا تصرف فيه المترجم فقربه من شعور قومه أو كان الشعور الذى يترجمه مشتركاً بين الأمتين .

فرادى وأزواجا ، وأشتاتا وركاما . وأرض خضراء أديمها ، وهى منبت جسدى وعقلى . وأصحاب يوالون ، وأعداء يناوئون ، وجهاد مستمر ، وآمال بيض ، ويأس أسود ، وفساد فى النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ، ونفس لى حرة لا تقيم على الضيم .

كل ذلك قد أنطقنى شعراً هو شعور كان يجيش فى نفسى قبل أن أنطلق به . .

وربما عرف المطالع من قصيدى حالة بلادى السياسية ، ودرجتها من

« الشعر ما ينظمه الشاعر من إحساس يجيش فى نفسه بأوزان موسيقية تهز السامع .

إذ الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقا أن يقال له شعر

ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد ، حر لا يتقيد بالسلاسل والأغلال وهو أشبه بالأحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء ، يتجدد — وأحر به أن يتجدد — بحسب الزمان . ويرتق من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب . وأنزع أن أمشى بشعرى ف

حبذا الشعر إذا كا مثيرا للشعور

وإذا كان نزيهاً كأغاريد الطيور

ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة ، عند الانتقال من فصل إلى آخر كما فعلت فى عدة قصائد . .

وأجيز للشاعر أن ينظم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها . . . الجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة ، ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما الناظر .

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجديد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم ، فإن لكل أمة شعرا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى كالموسيقى . ألم تر أن كلا من الشعر العربي والشعر الغربي إذا ترجم إلى الآخر فقد كثيرا من روعته ، اللهم إلا إذا تصرف فيه المترجم فقربه من شعور قومه أو كان الشعور الذي يترجمه مشتركاً بين الأمتين .

وكثير من المعاني مشترك لا يختص به شاعر دون آخر ، فمن أجاد في نظمه فهو أحق به من غيره ، وهناك حقائق علمية ونواميس طبيعية قد اكتشفها أفراد العلماء ، فإذا بنى شاعر شعره على بعض هذه الحقائق فمن الحيف أن يوصم بالأخذ ، وأي تثريب على من يبني القول على ما قرره العلم ، وهل التقدم إلا اتباع العلم في خطواته .

وقد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فيأتي به بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام ذلك ، وهو ناسي أنه مقول ، فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة .

هناك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم ، فرادى وأزواجا ، وأشتاتا وركاما . وأرض خضراء أديمها ، وهي منبت جسدي وعقلي . وأصحاب يوالون ، وأعداء يناوئون ، وجهاد مستمر ، وآمال بيض ، ويأس أسود ، وفساد في النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ، ونفس لي حرة لا تقيم على الضيم .

كل ذلك قد أنطقني شعراً هو شعور كان يجيش في نفسي قبل أن أنطلق به . .

وربما عرف المطالع من قصيدي حالة بلادي السياسية ، ودرجتها من

الرق فى السنين التى عشت فيها . وعرف عن حياتى ما لم يعرفه من التراجم المطولة»(١) .

* * *

كل هذا الذى رسمه الزهاوى جديد ناهض ، وقد يبدو لقارىء اليوم ترداداً للبادىء كما يقولون ، ويجدر ألا ننسى أنه قد انتهج هذه الأصول ونادى بها قبل أكثر من نصف قرن يوم كان الشعر تقليداً للموروث وانهماكاً فى المدح والرثاء .

لم يكن مبدأ البسا طة فى الشعر معلنا
أنا من بعد أعصر أنا أعلنته أنا (٢)

وقد تجد فى بعض كلمته هذه اعتذاراً أو تبريراً لفعلة وقع بها فندد به بعض معاصريه ، كتحبيذه تغيير القافية ، وتضمينه المعانى الشعرية المخترع(٣) فلقد وقع له هذا كما أكثر من التكرار وتقليب المعانى ، والواقع أن لهذه المسألة ذيولا فى الأدب العربى ، شغلت النقدة زمناً طويلا ، وعركها (العسكرى) و (الجرجانى) و (الآمدى) .

والغريب أنك تحس ثورة الزهاوى على كل قديم ، مما حدا به إلى أن يبيح النظم فى أى وزن يشاؤه الشاعر سواء كان من أوزان (الخليل) أو غيرها ، ولقد جاءنا نبأ بعض الشعراء الذين ثاروا على الخليل يوم قعّد قواعده (كرزين العروضى) الذى رسم أصولا وبحوراً تغاير بحور (الخليل) وإن لم يصلنا غير خبرها . و (كأبى العتاهية) الذى نظم قليلا مما خرج به على أوزان الخليل . وجاءنا نبأ ذوى الموشحات وذوى الفنون الشعرية الأخرى (كالقوما)

---

(١) أنظر (نزعتى فى الشعر) بتقدمه (ديوان الزهاوى) ص ا — ز ، وانظر مقدمة (اللباب) أيضا .

(٢) اللباب ص ١٦٣

(٣) أنظر باب (المخترع والبديع) فى العمدة : ابن رشيق ٢٣٢/١

و (الدوبيت) و (الكان وكان) وغير هذه . ولكننا لم نر فى شعر (الزهاوى) ما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل حاول الخروج على المألوف من الوزن ، وإن كنا قرأنا له بعض المحاولات لتجديد صورة الشعر ، بعدم التزامه وحدة القافية (١) .

ولا أغالى إذا ادعيت أن محاولته فى هذا الميدان غير ناضجة وأن التوفيق قد خانه . فقصيدته (بعد ألف عام) التى ادعى أنها من الشعر المرسل المستحدث لا تثير فى القارىء ما يبعثه على المضى بها أو الائتلاف معها . ولا تستحق أن تنعت بأنها (مستحدثة) إلا إذا أجزنا أن يقال للعب الصبيان استحداثاً مقبولا ، ولا نظن بين الناشئة المتأدبين من لا يستطيع النظم عل نحو الزهاوى المستحدث .

كأنى من قبرى انبعثت وقد مضى ... على من الأعوام فى جوفه ألف
فألفيت أن الأرض قد حال وجهها ... بصنع الألى كانوا عليها يعيشونا
وأن هناك البرق ضاق عرضه ... بهم فبنوا فوق البحار المنازلا
ولكنما الشمس المنيرة لم تزل ... تضىء نهارا ثم تغرب فى الليل
وكانت بعينى السماء كعهدها ... منمقة فى الليل بالأنجم الزهر
وألفيت أن الناس طرا تغيروا ... فما أحد منهم كما كنت ألقاه (١)

وقد جازت قصيدته المائة بيت هذا طابعها .

وأكثر من الرباعيات ، وهذه صورة ليست جديدة فى الشعر العربى وإن لم تكن شائعة شيوعها فى شعره ، وبلغت رباعياته أكثر من ألف . طابعها مكرور وأكثر معانيها مكرورة أيضاً ، وقد نشرها بكتاب سماه (رباعيات الزهاوى) قدم له بمقدمة طويلة عن حياته نشره عام ١٩٢٣ .

---

(١) انظر رأيه فى القافية : سحر الشعر ١/ ٥٦

(٢) اللباب ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦ . وانظر قصيدة أخرى هذه صورتها . الكلم المنظوم ص ١٧١

وله قصائد امتاز بها على شعراء عصره الذين التزموا البحور الطويلة المألوفة وهي إلى التوشيح أقرب وبموسيقاه ألصق . ولك أن ترجع إلى قصائده (العلم والجهل)(١) و (حظي هو النظر)(٢) و (كلمة في الشعر)(٣) و (لم تدم لنا)(٤) و (إلا أنا وحدي)(٥) التي أرويها :

روض وبستان ورد وريحان
بلابل تشجو منهن ألحان
تمشي زرافات حور وولدان
الكل مرتاح الكل جذلان
الناس في رغد
إلاّ أنا وحدي
تزداد آلامي عاما على عام
أهكذا أشقى في كل أيامي
فأين آمالي وأين أحلامي
إذا دنا حتفي تزول آلامي
فليس لي شيء
سوى الردى يجدي
للقوم أحقاد عليّ تزداد
كم كاد لي كيدا للؤم أضداد(٦)
كأن قومي عن نهج الهدى حادوا
أني وإن جارت عليّ بغداد

---

(١) ديوان الزهاوي ص ٢٣٧ (٢) ديوان الزهاوي ٩
(٣) ديوان الزهاوي ص ٢٤٦ (٤) اللباب ص ٣٢
(٥) اللباب ص ٧٤
(٦) ويروى : كم كاد لي سبا في الصحف أضداد

أهدى لها حبى
هذا الذى عندى
بنايتى انهارت تجارتى بارت
سعادتى ولت تعاستى زادت
جسارتى قلت جلادتى خارت
عصفورتى فرت حمامتى طارت
لقد أتى نحبى
وقد مضى سعدى
ما كنت فى الماضى أشقى بأعراض
أبلى بإخفاق أمنى بإنفاض
بل كنت فى عهد للعيش فضفاض
أفديه من عهد عنه أنا راض
ياحبذا الذكرى
لذلك العهد

وربما كان الزهاوى أكثر شعراء العربية حديثاً عن الشعر ، واعتزازاً به . فهو يرى فيه رفيقه وخليله ، ويرى فيه عزاءه عند الملمات ومسليه عندما تعتوره الهموم ، خاطبه كثيراً ولاذ به كثيراً .

وكان منبره ، منه يخطب الناس ويبث رسالته ، وقد يعز عليه الصديق فلا يرى غير الشعر صديقا ، ويعز عليه من يعرف دائه الدفين فلا يلقى غير الشعر سباقا إلى أعماق نفسه . وله فى هذا الميدان قصائد هى مظهر لنفس حزينة وصورة ناطقة عما اعتور الزهاوى ونغص عيشه ...

ياشعر إنك أنت صوت ضميرى يبديك حزنى تارة وسرورى
ياشعر أنت بكاى يوم كآبتى وتبسمى ياشعر يوم حبورى
أنا أنت ياشعرى وأنت أنا فمن يقرأك يقرأ سيرتى وشعورى

ما أنت إلا صيحة أرسلتها   في الليل عند تكاثف الديجور
قد كنت حينا في خفائك خافيا   حتى ظهرت فكان فيك ظهوري(١)

* * *

ياشعر أنت سماء   أطير فيها بفكري
طورا أسف وطورا   أعلو كتحليق نسر
إن لم تصور شعوري   فلست ياشعر شعري
من بعد موتي بحين   سيعلم القوم قدري
لقد وقفت حياتي   لكم وأفنيت عمري(٢)

* * *

أقول للشعر شعري   وليس بالشعر كسبي
إن أعرض الناس عني   فحسبي الشعر حسبي(٣)

* * *

أنت يا شعر خالد   أنا يا شعر هالك
أنت يا شعر كل ما   أنا في الكون مالك(٤)

وقد يكون طريفاً أن ترى (الزهاوي) يرسم نهجه في النظم ووسيلته .

وإذا شرعت بنظمه   للذهن فيه أحصر
فإذا نظمت البيت منه   أعيده وأكرر
وإذا رأيت اللفظ ليس   كما أروم أغير
وأظل أصقله إلى   أن تستقيم الأشطر

(١) اللباب ص ٨٢   (٢) اللباب ص ٨٣
(٣) اللباب ص ١٤٥   (٤) اللباب ص ١٦٣

ويروع عيني حسنه ويبين فيه الجوهر
أحسن بشعر عن شعور النفس كان يعبر(١)

ويظل يكرر بأن شعره صورة صادقة لشعوره ، وإن كان (الزهاوى) نفسه قلقا فى هذا الشعور .

يا شعر إنك فى الحق صورة من شعورى
وأنت للناس يا شعرى ترجمان ضميرى

فلقد رأيناه يصور شعوره والأحداث التى هزته ، دون تقص ودون احتراز . فكثيراً ما هزته مناسبة فلاذ بالشعر حتى إذا أدبرت وبان شرها راح إلى شعره يلمله ويقطعه ليزيح هذا الذى عافته الأيام . وتجد أثر هذا واضحا فى مختاره من شعره . فقد يثبت القصيدة فى ديوان طبع هذا العام ، فإذا به يثبتها مبتورة فى ديوان آخر بعد أعوام ، وقد يقطع القصيدة وصلا تحشر فى أبواب مختلفة . وهذا ولا شك يفسر عيبا ظاهرا فى صورة شعر الزهاوى ، الطول الممل والاسترسال فى الموضوع وتقليبه أحياناً والاستطراد أحياناً إلى ماقد يخرج به عن المراد(٢) . ولكننا لا ننكر على الرجل فى ذلك كله ثباته على ما إليه دعا وبه بشر ، من أن الشاعر الصادق هو الذى يقول ما يشعر به هو لا ما شعر به آباؤه . فلقد ظل شعره صورة لشعوره سواء كان هذا الشعور صادقاً بطبعه أم غير صادق . وظل ينزع إلى الجديد فى موضوعاته ، ويسهم فى معان الحياة حتى غدا شعره سجلا أدبيا لكثير من أحداث البلد وتياراته ، ولكثير من عاداته وتقاليده ، مما لاتجده فى شعر جيل سبقه . وإن كنت واجده أصدق وأشمل فى شعر بعض معاصريه .

وإذا كان بعض القدامى قد وقف شعره على حبيبة أو صديقة عُرِف بها

---

(١) اللباب ص ٨٩

(٢) انظر بعض عيوبه فى هذا الباب ـ حقيقة الزهاوى . لمهدى العبيدى ص ١١٥ و ١٥٠ .

واشتهر باسمها ، فان الزهاوى بين المحدثين قد عرف بليلاه .

ردد اسمها كثيراً ، وبثها شكواه وآلامه كثيراً ، حتى ليخال قارىء شعره أنها (كالعامرية) أو (بثينة) أو (فوز) . ولكن (ليلى) الزهاوى هذه حلمه الذى اليه صبا ، وأمانيه التى حط عندها رحاله ، فهى (الحقيقة) وهى (العراق) وهى (فتاة) أحبها أيام كان (بالأستانة)(١) ، وقد يحار قارىء شعره فى (ليلاه) وقد يختلط عليه أمر فتاته وأمر حقيقته وعراقه .

أريد إذا قابلتها لأبثها ... غرامى بها لكننى أتلجلج
تمنيت يا ليلى وهل تنفع المنى ... لو أن حياتى فى حياتك تمزج

***

قابلت ليلى فلم تمدد إلىّ يدا ... ياويلتا أن أتعابى ذهبن سدى
لا كنت من شاعر لما أهين شدا ... أزور ليلى إليها الوجد يدفعنى
وأن حظى فى ليلى هو النظر

بانت عشيا وما للبين من سبب ... فساء من بعد ذاك البين منقلبى
ياليتنى كنت أطوى الأرض فى الطلب ... إذا اجتمعت وليلى عند رجعتها
فقد تعاتبنى ليلى واعتذر

***

ليلى أطلّى على العا ... شقين ليلى أطلّى
ترى أعزة قوم ... مطأطئين بذل
ترى صدوراً من الشـ ... ـوق والصبابة تغلى
عدى وإن كان وعد الحـ ... ـبيب رهنا بمطل
هل كان يمكن ألا ... يحب مثلك مثلى

---

(١) الكاتب المصرى سنة ١٩٤٧ ص ٩٥

إنى لأجلك يا ليلى   عفت أرضى وأهلى
فأنت منذ خلقنا   ماذا فعلت لأجلى(١)

***

يا نجمة الصبح من حا   لق علينا أطلّى
ويا نسيم تحرك   من أجل ليلى وأجلى
ويا هزار أعد لى   ما كنت بالأمس تملى
إلى يا نرجس أنظر   بأعين منك نجل
يا ياسمين تفتح   يا أقحوان ابتسم لى
ليس الأزاهر إلا   مظاهرا للتجلى
وكيف أنسى بقاعا   فيها منازل أهلى(٢)

وليس من منكر أن (الزهاوى) قد ودع اللغة التقليدية — إن صح هذا التعبير — التى ألفناها فى الشعر، وودع المحسنات البديعية واللفظية التى غالى فيها شعراء سبقوه حتى صارت قوام شعرهم وعماده. ولك أن ترجع إلى دواوين (السيد الحلى النجفى) و (الحبوبى) و (العمرى) و (الأخرس) وبعض المجموعات الشعرية (كالعراقيات) لتقف على جوانب واضحة من التقليد الممل البغيض، وكيف هزل رواء القصيد حتى صار ضربا من التلهى بمحسنات يكد وراءها الذهن ليدركها.

وحاول أن ينتزع تجاربه من أحداث حاضره وواقعه، ومما اعتور البلد من مشكلات. كما وقف نفسه على التزام لغة تعبير بسيطة خالية من الألفاظ الكزة الجامدة، وربما جنح إلى ألفاظ دارجة يومية..

وكان له من اللباقة وحسن التصرف ما باعد كثيرا بين شعره والضعف الذى يلفه فى فعلة كهذه عادة، وقد يقع قارىء شعره على ما يبدو مائعا أو كزا فى أذنيه، فليتذكر أن (الزهاوى) عمر طويلا ونظم كثيرا، وقد يكون

---

(١) اللباب ص ٣٢ — ٣٤   (٢) اللباب ص ٥٣

طبيعياً أن يدركه هذا لأننا لم نلف شاعراً استقام له نظمه كله وخلا شعره من سقطة أو عثرة .

ويبدو أن جوانب (الزهاوى) المتعددة وشغفه بالعلم الذى عرفه عصره وبأصوله ، ودراسته الفلسفة ، صيرت منه عالماً أديباً ، تحس فى كثير من من شعره الطابع العقلى والنزوع إلى المناقشة العقلية والتفاصيل فى أكثر الشئون التى طرقها ، كما سترى هذا تفصيلا .

فى هذا تجد الفرق بينه وبين (الرصافى) معاصره . فهذا فنان أديب وذاك أديب عالم أو متأثر بالعلم .

إذا أقبلت على شعر الزهاوى وبرأسك هذا أدركت مغزاه، وربما لذلك أكثر شعره وراقك ، وربما رأيت لقصائده فى الفلك والنجوم وغيرها مما ضاق به الكثيرون مبرراً ورأيت لها رواء .

الفصل الثالث

فنون شعره

كانت الأغراض الشعرية التي ولع بها الزهاوي مواكبة لطبيعة سنته في الحياة، وغرضه من النظم. فالشاعر لا يجدّ وراء الفنون التي كثرت عدا عند القدامى، ولا يستهدف هذه الفنون لذاتها بل تكون صدى لما وقف له ونحاه، ولم يكن الزهاوي ليختلف عن ذي دعوة عامة بها بشّر. وفيها أكثر القول، محاولا جرّ مجتمعه إليه والتغني بما يبعث العزم والاندفاع نحو مثله وأهدافه. وكان طبيعياً أن يمدّ يديه إلى ما اعتور (المجتمع) من أرزاء وأدواء. وليس شأن الشاعر أن يعرك هذه المشكلات كما يفعل الاجتماعي أو الفيلسوف، لأن الشعر فن ذو حدود، وقصاراه أن يثيرك متغلغلا في أعماق نفسك متملكا عواطفك وشعورك، لا أن يأخذك إلى ما أنت واجده في العلم.

وللزهاوي نظم قد يكون له من الشعر وزنه وقوافيه فحسب، ولكن هذا قليل بالاضافة إلى شعره الجم ومجموعاته الكثيرة.

وربما كانت الأضرب التي شاعت في شعره ذات طوابع متقاربة أصلا وإن اختلفت صورها؛ فالزهاوي كما يعرفه أبناء زمانه شغل الرأي العام وتضاربت الآراء فيه، فمن قائل إنه شاعر فيلسوف ومن مدّع أنه ليس شاعراً بل فيلسوفاً، وغالى بعضهم فذهبوا إلى أنه لاذ بالشعر ليبلغ غاية في نفسه هي الفلسفة (١)، واحتج هؤلاء ببيته المعروف:

---

(١) مجلة الامام: عدد مارس ١٩٣٧ (الزهاوي الشاعر) بقلم اسماعيل أدهم. ومجلة الادب الجزء التاسع، أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧.

وانظر رأي المستشرق الروسي (كراتشكوفسكي) في مجلة الرسالة العدد ١٧١ سنة ١٩٣٦

ولقد جئت بالحقائق أشدو وتركت الخيـــال للشعراء

وبعض قصائده .

والواقع أن الزهاوى قد تأثر بالفلسفة ، وبان هذا واضحاً فى شعره ، فلقد كان مدرساً للفلسفة الإسلامية فى (المكتب الملكى) (بالاستانة) بعد الانقلاب العثمانى ، وهذا حدا به إلى متابعة ما يجد من نظريات علمية وفلسفية ، وحدا به إلى أن يكتب فى موضوعات لا نظن غيره يقحم نفسه فيها . فكتب كتاباً فى (الجاذبية وتعليلها) عام ١٩١٠ وكتاباً فى الظواهر الفلكية والطبيعية سماه (المجمل مما أرى) نشره عام ١٩٢٤ .ولا نظن الفلاح أدركه دوما لأنه لم يتهيأ له من الدراسة العلمية ما يقيم الرأى أو يأخذه إلى الأصول العلمية السليمة ، ومن يقرأ الكتابين يقف على ما عاناه ، لأنه ولج ميادين بعيدة عنه ، وليس للتأمل مجال كبير فيها شأن الفلسفة .

ومهما يكن من شىء فان نشيشه بالعلم على ضعفه — وبالفلسفة قد خلف أثراً ظاهراً فى شعره ، فهو نزاع إلى مناقشة الأمور ومحاكمتها ونزاع إلى ذكر العلل والأسباب والنتائج ، وإلى البراهين والأدلة أحيانا ، وهذا بطبعه لا يواكب الشعر كثيراً . فجاء شعره — شأن من غلبت عليهم نزعة فلسفية أو علمية — مطبوعا بطابع فلسفته ونحوه ، يتراوح بين ما تجد له ديباجة الأديب وما تستطيع أن تصفه بأنه مفصول من هذه الديباجة إذا ارتضيت التعبير .

وليس الزهاوى ببدع بين شعراء العربية فى هذا النهج ، فلقد كان لأبى تمام وابن الرومى ، وكان للمعرى والمتنبى شىء من هذا وإن اختلف .

وتجد أثر هذه النزعة فى لغته أيضاً ، فهى إلى لغة العلم أقرب منها إلى لغة الأدب . وقد تجد هذا واضحا إذا ما قارنت شعره بشعر الرصافى معاصره ، فالفرق بيّن وديباجة العالم والأديب واضحة فى كثير مما أنتجا ، ويذكر انك حتما بما عرفت عن (أبى تمام) و (البحترى) .

وإذا جازت المقارنة بين الطائيين وشاعرينا المعاصرين فإن الضجة التى أحدثها الطائيان لا تختلف كثيراً عما أحدث الزهاوى والرصافى .

إن الفنون التى طرقها الزهاوى – كما قلت – تهدف وجهة عامة مستوحاة من أحداث جيله وأزمات زمانه ، ومن طبيعة التقاليد التى رزح فيها القوم . وإذا جاز لنا أن نصنفها إجمالا ، فانها فرعان كبيران هما شعره فى السياسة وشعره فى المجتمع ، ولك أن تحشر تحت هذين الفرعين فصولا كثيرة تمت إليهما .

شعره السياسى

يهدف الشعر السياسى اصطلاحا تقصى أعمال الحكومة القائمة، وتعقيب ما تحققه للمواطنين مما يتفق وكرامتهم ، ويحقق لهم تقدما ونهضة وعمراناً مطرداً ، وعيشاً لائقاً بإنسانيتهم ، والعمل على اقتفاء دستور حكيم منتزع من أهداف المواطنين وطموحهم لا من أهداف الحاكمين ومآربهم . وقد يكون فى هذا النحو تجوز لكنه مفهوم شامل .

وإذا تقصينا شعر (الزهاوى) فى هذا المجال ، رأينا له أدواراً ثلاثة تواكب ظروف العراق السياسية هى :

١ – عهد الحكم العثمانى
٢ – عهد الاحتلال البريطانى
٣ – عهد الحكم الوطنى

كان العراق ولاية تابعة للخلافة فى (اسطنبول) طوال عهد العثمانيين . وكان للخلافة هيبة وجلال فى نفوس الناس ، مكنت لها دعاية واسعة للسلطان خليفة المسلمين وحامى الدين .

ولقد جارى (الزهاوى) أول عهده بالشعر ، التيار العام الذى انطلق فيه الناس ، ورأى فى الخليفة رأى الناس فى زمانه ، فظل للخليفة سلطان على

نفسه ، ومكانة عنده ، فسمعناه يطرى (جيش الخليفة) ويرى فى عزته عزة المسلمين ونصرتهم :

هو الفتح ألقى فى قلوب العدى هولا | وأثبت أن الحق يعلو ولا يعلى
لبسنا به ثوبا من العز ضافياً | وهم لبسوا من أجله العار والذلا
رداءان من عز وذل كلاهما | جديد على مر الزمان فلا يبلى
أضاع بنو اليونان فى الحرب رشدهم | فضلوا وقد خابت أمانىّ من ضلا
تغلب جيش المسلمين عليهم | فأثخنهم جرحا وأوسعهم قتلا
وبدّد بالغارات شمل جيوشهم | خميس على جل الحصون قد استولى
عقدنا مع اليونان للحرب هدنة | على طلب منهم فكانوا اليد السفلى
هو النصر مقرونا به العز لم تزل | بألسنة الأيام آياته تتلى
أقول لمن قد بات يجهل مجدنا | سل السيف عنا والفتوة والنبلا

٭ ٭ ٭

لسلطاننا (عبد الحميد) سياسة | طريقتها فى المعضلات هى المثلى
سللت لنصر الدين سيف عزيمة | فللت به ما لم يكن فله سهلا
فجهزت جيشا للجهاد عرمرما | قهرت به ذاك العدو الذى ولى
نهنيك بالفتح المبين الذى به | تسامى منار للشريعة واستعلى (١)

وقد تجد هذا الاندفاع للخلافة والتعلق بها فى شعر كثير من معاصرى الزهاوى ، كالرصافى وشوقى وحافظ وغيرهم :

لأنت جدير بالظهور على العدى | وأنت بتأييد الخلافة جدر
جهادك يغشى البرق أخبار نصره | وفوزك فى كل الجرائد ينشر
وفعلك فى الأفواه يتلى وفى الورى | يشيع وفى التاريخ بعدك يذكر
يود العلى والحق أنك كلما | تقابل أعداء السلامة تظهر

(١) عنوان القصيدة (الفتح الحميدى) فى ديوانه (الكلم المنظوم) ص ٣ ــ ٤

إليـــك عيون المسلمين بأسرهم على بعدهم فى الشرق والغرب تنظر (١)

كل هذا قبل أن تستفحل دعوة الأحزاب المناوئة لعبد الحميد . وقبل أن تثور ثائرة العرب ويبرموا بما وصلوا إليه . وقد أسهم زمرة الشعراء الناهضين – والزهاوى منهم – بالموجة الصاخبة على ولاة السلطان ، فراحوا يندددون بسياسة الخلافة ، وبما وصلت إليـــه بلادهم من فوضى وتدهور واضطراب :

وما هى إلا دولة مُسْتَبِدَّة تسوس بما يقضى هواها وتعمل
فترفع بالإعزاز من كان جاهـلا وتخفض بالإذلال من كان يعقل
ألا إنما بغــداد قد أصبحت بهم يُهدِّدُها داءٌ من الجهل معضل
تَحَوَّلُ عنهـا كل يوم رزية فتبق دَمارا ثَمَّ لا يتحول
وقد عبثت بالشعب أطماع ظالم يحمله من جوره ما يحمل
فتعسا لقوم فوضوا أمر نفسهم إلى ملك عن فعله ليس يُسْأل
فيـا ملكا فى ظـلمه ظل مسرفا فلا الأمن موفور ولا هو يعدل
تمهل قليــلا لا تغظ أمة إذا تحرك فيهـا الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترر بهـا فإن يد الأيام منهن أطول (٢)

ويبدو برم (الزهاوى) بهجماته العنيفة على الولاة وتجريحه سياستهم .

وكان – كما هو شأنه – يفصل ما انتاب العراق من أزمات ومحن كانت وليدة هذه السياسة الجائرة ، وكيف غدت الحكومة – فى البلاد – ذريعة للغدر والنهب . .

يا غيرة الله ابطشى بعصابة ألهاهم الجبروت والطغيان
فلقد أهين العـدل فى ديوانه ولقد أهين العـلم والعرفان

---

(١) يخاطب جيش الخلافة . ديوان الزهاوى ص ١٠٩

(٢) الكلم المنظوم ص ٨

ولقد أهينت للمساجد حرمة وأهين فى محرابها القرآن
جعلوا الحكومة فى البلاد ذريعة للغدر حتى رجت البلدان
لا شىء يحظى من قلوب سراتهم بالحب إلا الأصفر الرنان
قوم جفاة ما لهم من رحمة لو لان صخر جامد ما لانوا
سلبوا القبائل ما لها بوسائل لا يستطيع كخلقها الشيطان
لم يرتضوا من بعد سلب ثرائها إلا بأن تهتك النسوان
ويح المواطن إنها لبست بهم ثوب الخراب فما بها عمران
محقورة فى عينهم لا أهلها أهل ولا إنسانها إنسان
تالله يا طمع الولاة عرقتنا وأكلت مالا يأكل الغرثان(١)

وكانت له مواقف مشهودة فى التشنيع بالولاة ، فتسمعه يهاجم والى الولاية فى قصيدة طويلة عنوانها (طاغية بغداد)(٢) :

جاء عجزا يزرى وجاء اقتدارا وتردى شناعة وفخارا
عامل الناس بالعدالة والظلم فكانوا يلقون نورا ونارا
جر عزاً إلى العراق وذلا وحياة لأهله وبوارا
وأصار النهار ليلا بهيما وأصار الليل البهيم نهارا
أفقر القوم بالعراق وأغنى وسّع الطرق ضيق الأفكارا
أخضع الناس نَفَّذَ الحكم فيهم وطد الأمن أرخص الأسعارا
غرّب الأبرياء بثّ الجواسيس على الناس أسعف الفجارا
مقت العلم ساخرا من ذويه بذر المال جرّأ الأشرارا
قال للناس إنما الأمر شورى بيننا ثم أنه ما استشارا

ولم ينس الزهاوى أن ينهج خطة جِد فى دعوته ، ويحتضن ما دعت إليه المنظمات التى عملت على رفع العراق والبلاد العربية عامة ، فدعا — دعوتها —

(١) الكلم المنظوم ص ١٢٤ — ١٢٦
(٢) ديوان الزهاوى ص ٧٣ و ٢٢٠

إلى التسلح بالعلم ومكافحة الجهل والالتفات إلى شؤون الحياة التفاتا جديا ، والتآزر للعمل على تحقيق الأهداف العامة التى يبتغونها لتحرير بلادهم ، فظل شأن الخطيب لا ينفك عن بث تعاليمه :

أيها الناس مر وقت الملاهى   أيها الناس إنما أنا ناهى
أيها الناس قد دهتكم دواهى   أيها الناس سارعوا لانتباه
أيها الناس أنتم فى رقاد
إنما العلم للممالك صون   وعلى الجهل ليس يثبت كون
بين هذا وذاك لا شك بون   إن هذا لون وذلك لون
لا يكون البياض مثل السواد
استنيروا بالعلم فالعلم نور   إنما بالعلوم تنفى الشرور
ضجرت من هذا السكون القبور   انفضوا عنكم الخمول وثوروا
أنا ناديت لو يثير المنادى
إنما العلم أصل ما نحتاج   فيه نفع لنا وفيه ابتهاج
فهو الرأس أو على الرأس تاج   أو على التاج درة أو سراج
مستنير كالكوكب الوقاد(١)

وكان طبيعياً ألا يستقر جلال الخلافة فى نفس الزهاوى طويلا . فسرعان ما كشف عن برمه بالخليفة نفسه ، ولا سيما بعد أن يئس من ولاته ، ورأى أن أمرهم لم يكن ذاتياً أو فردياً بل نهجوا خطة عامة تعمل لها الخلافة نفسها . فراح إلى الخليفة يقرعه ويهاجمه هجوما عنيفا لم نعرف له شبها فى المحدثين خلا (الرصافى) . وقد يكون ما وصم به الخليفة مشابها لكثير مما وصم به ولاته ، ولكنه أكثر العنف ، وربما كانت قصائده فى هذا المجال أروع شعره وأعذبه ، تحس فيها ثورة عارمة وشعورا صادقا :

---

(١) ديوان الزهاوى ص ٢٢٢

نحن فى غفلة نيام وعنا نائبات الزمان غير نيام
نحن فى دولة تداركها الله تبيح المحظور للحكام
وعدها بالإصلاح جم ولكن لا يجوز الإصلاح حد الكلام
كم وكم فى رجالها من جهول صدره ساطع بأبهى وسام
نحن قوم قضت إرادة شخص واحد أن نعيش كالأنعام
أيها الظالم اغتصبت حقوقا قد حباها الأنام رب الأنام(١)

وقصيدته (حتّام تغفّل) من غرر شعره :

ألا فانتبه للأمر حتام تغفل أما علمتك الحال ما كنت تجهل
أغث بلدا منها نشأت فقد غدت عليها عواد للدماء تعجل
لقد نزعت أم ربيت بحجرها وأنك عنها غافل لست تسأل
رعى الله ربعا كان بالأمس عامراً بأهليه وهو اليوم قفر معطل

* * *

وما فئة الإصلاح إلا كبارق يغرك بالقطر الذى ليس ينزل
لهم أثر للجور فى كل بلدة يمثل فى أفعالهم ما يمثل
إذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها كأنهم فيها البلاء الموكل
فمدت إلى سورية يد عسفهم تحملها من ظلمهم ما تحمل
وبغداد دار العلم قدأصبحت بهم يهددها داء من الجهل معضل
لقد عبثت بالشعب أطماع ظالم يحملهم من جوره ما يحمل (٢)

وقال فى قصيدة أخرى عنوانها (بأيدينا) :

ما أن تهضم سلطان رعيته فالملك قبلك قد ربى سلاطينا
كانوا على الناس آباء أولى شفق وفى الأرائك أملاكا خواقينا
وكانت الناس فى أيام دولتهم لا يبخسون على الناس الموازينا
إن الرعية أغنام يحد لهم ولاتك المستبدون السكاكينا (٣)

---

(١) الكلم المنظوم ص ٦ — ٩ (٢) اللباب ص ١٤
(٣) انظرها فى الكلم المنظوم ص ٩ — ١٣ وفى المختار من شعره فى هذا الكتاب .

ويكاد يكون شعره فى هذه الحقبة الطويلة سجلا صادقا للأحداث العامة ، وللسبيل التى ساس بها العثمانيون الناس من إرهاب وتنكيل وتجسس وتعذيب ومطاردة . وتجد هذا واضحا فى قصيدته الطويلة (أنين المفارق) التى نظمها فى زمن الاستبداد بعد إرجاعه مخفورا من الآستانة إلى بغداد .

ولقد شغلت السلطنة العثمانية حروب خارجية كثيرة مع اليونان والروس وغيرهم . فكان الولاة يعمدون إلى تجنيد العرب إلى ديار بعيدة يتركون وراءهم أهليهم وذويهم دون من يرعاهم ، ولم تكن الدولة ذات تدبير أو حزم لتتعهدهم .

وقد صور شاعرنا البؤس الذى انتاب ذوى المقسرين على الانضمام فى جيش السلطان ، وعمد فى هذا التصوير إلى الأسلوب القصصى الذى التزمه فى عرض كثير من المآسى الاجتماعية أيضاً ، وقد يذكر البطل الأحداث تفصيلا .

وقصيدته (أرملة الجندى) (١) أسمى ما نظم فى هذا المجال :

ألا إنما هذا الذى لك أنقل ... له مثلما أرويه أصل مؤصل
قضى أحد الضباط فى الحرب نحبه ... وكان إذا دارت رحى الحرب يبسل
وخلف زوجا قلبها رهن حبه ... وكان له قلب بها متشغل
من اللاء لم يأتين فاحشة ولا ... زنُن بما منه العقائل تخجل
نوار كشخص للعفاف مجسم ... فان ذكر الناس العفاف تمثل
فجل لفقدان الولى مصابها ... وباتت تناجى الهم والعين تهمل

* * *

وفاجأها فقر فباعت لدفعه ... أثاثا به قد كانت الدار تجمل
إلى أن تخلى البيت من كل ما به ... ولم يبق فيه ما يباع وينقل

---

(١) الكلام المنظوم ص ٥٦

تجانبها الأدنى وكل لداتها ... وأعرض عنها جارها المتمول
هنالك أبدى الجوع ناجذة لها ... وزاد بها الداء الذى هو معضل
فخارت قواها فى غضير شبابها ... وحارت فلم تدر الذى هى تفعل

☆ ☆ ☆

تروح إلى دار الحكومة تبتغى ... معاشاً لها مستأخرا ليس يحصل
ريالان بعد الزوج قد رتبا لها ... وذلك نذر ليس بالعيش يكفل
تقول لذى أمر على المال سيدى ... إليك بجاه المصطفى أتوسل
أنلنى معاشى اليوم وارحم فاننا ... جياع إذا لم تعط من أين نأكل
فأوسعها شتما ورد سؤالها ... وقال لها موتى طوى لست أبذل
أمالك أمر المال انك زدتها ... سقاما على سقم أقلبك جندل

وكان للآلام التى خلفتها الحروب ، وويلاتها على الناس ، وللحالة المتردية التى نغص فيها أطفال المحاربين وزوجاتهم ، أثر كبير فى نفس الزهاوى . فلعن الحروب وأكثر الشكوى من ويلاتها ومصائبها ، وتجد فى هذا بعض نحاته الإنسانية التى أرادها للبشرية جمعاء :

للحرب ويلات بنسبتها ... هنالك تكبر
للحرب كسر فى عظام رجالها لا تجبر
الحرب للمتهوسين ... هى الطريق الأوعر
الحرب لولا أن تمسّ ... ضرورة لا تشهر
تضنى الذى هو ظافر ... وتذل من لا يظفر
فى الحرب لا تلقى من ... الفئتين من لا يخسر
جو السلام إذا توقدت الوغى يتعكر
لله أطراف تطاير ... أو بطون تبقر
لله أجساد على ... جنباتها تتكور (١)

(١) ديوان الزهاوى ص ١١٢

وإذا كانت هذه القصيدة من نتاجه أيام الحكم الوطني ، فان قصيدته (مشهد من الحرب الكبرى) من هذا الطراز الذي يصور آثام الحروب وويلاتها :

قد ولّد الحرص حربا   بين الورى وخصاما
وشبت الحرب نارا   عمت تروع الأناما
يا نار كوني علينا   بردا وكوني سلاما

* * *

في كل أرض وصقع   مدافع ثائرات
يقتلن كل فتى قد   تفيد منه الحياة
وليس يبقين إلا   أراملا ويتامى

* * *

تحوم في الجو طيا   رات وتمطر نارا
وتحصر البحر غوا   صات وتهدي البوارا
وتملأ البر دبا   بات تقل الحماما

* * *

هناك بحر خضم   يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نار   تسعى لتأكل أخرى
هناك جيش لهام   يؤم جيشا لهاما

* * *

القتل قتل ذريع   والخطب خطب جسام
فوق الرغام دماء   يحمر منها الرغام
الأرض تشرب منها   ولا تبل أواما

* * *

في البر والبحر نار وفي السماء دويّ
وللرصـاص أزيز وللرجال هـوى
القتـل يؤثر عمـدا ولا يعد آثاما (١)

ولقد أيد الزهاوي مع المؤيدين حركة الاتحاديين في إعلان الدستور، ووجد فيها ما يواكب نفسه الثائرة، وتسمعه يذيع في الناس البشرى باعلان الحرية في ظل الدستور الجديد:

البرق أهدى لنا بشرى بها أمنت ... أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما نبتغي الآمال صادقة ... أجلها الناس من قاص ومقترب
لقد أقر لعمري أعينا سخنت ... ما ناله فئة الأحرار من أرب
صاحت لفرحة هذا العيد أفئدة ... كانت تئن من الأرزاء والنوب
صاحت شرورا وكانت قبل فرحتها ... تدعو على كربها بالويل والحرب (٢)

ولكنه يثور على عصبة الاتحاديين عندما غدروا بالعرب، وقتلوا أحرارهم وطاردوهم:

فاذمم بحزب جار وهو مهيمن ... وأقبح بحزب ساد وهو يعول
وأرذل بحزب كان في كل مطلب ... يميل مع الأيام حيث تميل
ولن تسكت الأيام عن عصبة جنوا ... ولكن بما كالوا لهم ستكيل (٣)

☆ ☆ ☆

ويدخل (الزهاوي) دوراً نحسا في عهد الاحتلال البريطاني، لأنه — كما قلت — قعد عن الثورة ورأى فيها وبالا على البلاد (٤).
وأغرب ما في أمره أن اندفاعه المشهود، وحماسته التي جاز خبرها

---

(١) ديوان الزهاوي ص ١١٤.
(٢) الكلم المنظوم ص ١٨٦
(٣) من قصيدته في رثاء الأحرار الذين شنقهم الاتحاديون في سورية.
(٤) انظر مقدمة الرباعيات بقلمه.

حدود الرافدين ، قد اعتراها صمت طويل ، وصحب هذا صخب عليه وتقول متضارب فى وطنيته وقوميته . وقد عزز هذا التقول ما أسندته السلطة المحتلة من مناصب للزهاوى ، قد لا تكون أعلى منه مقاما ، ولكن الظروف التى عهدتها إليه نابية جائرة ، فصارت وبالا عليه ، وظل فى حيرة من أمره ، وصار الناس ينظرون إليه بعين الشك والريب ولا يطمئنون إليه .فكثر أعداؤه ومقاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به ، ويصيّروا منه ضحكة .

ولم يكن ليحتمل ما وقع له ، فظل مضطربا يخشى الناس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة .

وكأنه أدرك فشله بالمشاركة بأقسى محنة عرفتها بلاده ، فحاول أن يلوذ بالتقاليد التى رزح فيها الناس ، وبالمشكلات الاجتماعية التى تحفهم ، فحمل على العقائد البالية ، ودعا إلى التحرر الفكرى ، ومساواة المرأة بالرجل — كما سيأتى هذا .

كان شعره فى هذا الميدان منتزعا حقا من واقع المجتمع العراقى ، ولكن هذا كله لم يكفر عن سيئته عند الناس ، فحاول أكثر من مرة أن يهجر العراق ولا سيما بعد أن توالى عليه النقد والتجريح ، وألفى الحياة ببغداد ثقيلة على نفسه ، فقرر السفر إلى سورية بعد سنتين مضتا على الثورة ،ولكن اندلاع الثورة السورية أقعده عن هذا ، حتى أتيحت له الظروف بعدها فسافر إلى مصر .

ما عسى أن تفيد مثلى المساعى ... إن قضت بالحبوط فيها الدواعى
أنا والحق فى العراق مضاعا ... ن وما فيه غيرنا بمضاع
وإذا جرّت البقاع شقاء ... لمقيم فتلك شر البقاع
ليس يدرى بما أقاسيه إلا ... من تضاهى أوجاعه أوجاعى
أترى أن فى العراق صحابا ... لى إن ضعت يكبرون ضياعى
أو إذا ما أزمعت يوما رحيلا ... عن بلادى يهم قومى زماعى
يا مراح الصبا وأرض شبابى ... ما طلبت الفراق لولا الدواعى

إننى قد دافعت عنك بشعرى كشجاع فما أفاد دفاعى
وإذا كانت الخصوم كثارا لم يكن ذا جدوى دفاع الشجاع(١)

° ° °

وقال فى قصيدته (عن بغداد):
مقامك فى الزوراء ، غير حميد ولينك للأعداء غير مفيد
وظنك حسنا بالليالى سفاهة ورأيك فى الأيام غير سديد
سأرحل عن بغداد رحلة عائف فقد طال فى دار الهوان قعودى
وأخرج من آلى ومالى وموطنى وما كان لى من طارف وتليد
ولم أر فى عمرى كبغداد منزلا به العلم لا يجزى بغير جحود
رأيت بها بؤسا وشاهدت نعمة فلم أسترح من شامت وحسود
وكابدت أياما بها ولياليا تكران من بيض هناك وسود
وعشت فلم يرغد لى العيش عندها وما خير عيش لم يكن برغيد(٢)

ولم يستطيع (الزهاوى) أن يطيل مكثه خارج العراق . وكانت غيبته استجماما ، وصدفت الناس عنه قليلا . فاستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الأحداث العامة وأن يوقف نفسه لها ، فيثيرها ضجة على الحكومة ، كلها نقد مر ومطالبه بالإصلاح .

° ° °

ويبدو لنا فى فترة الحكم الوطنى تفاوت (الزهاوى) بين الشدة واللين ، وثورة الساخط ووعظ الشيخ المجرب .

والحق أنه وقد بلغه الكبر ، جر نفسه إلى نواح أخرى ، فانساب — شأن المنهزمين — فى مسائل فلسفية ولاذ بتأملات طبيعية شغلته كثيراً عن السياسة. وإذا كانت هذه الناحية فيه قد وهنت وشابت ، فإن تأمله الصوفى قد تهيأ له بعض الابداع الفنى .

(١) اللباب ص ٦٦ — ٦٧ (٢) اللباب ص ٧١

وأول ما يلاحظ عليه فى هذه الفترة إكثاره من المقارنة بين الغرب والشرق . فكأنه — وقد أدرك انهزام البلد عسكريا — أدرك معه أن ما يقومه ليرد عنف المستعمر ، التعلق بمقومات قوة المستعمر وعمادها ، فظل يدعو إلى التبصر بما عليه الغرب ويريد الشرق أن يحذو حذوه .

° ° °

قد طال للغرب فوق الأرض سلطان … وطال فى الشرق إقرار وإذعان
الغرب فيه نشاط خلف حاجته … يسعى ليبلغها والشرق كسلان
الغرب مستلب والشرق مهتضم … والغرب منتبه والشرق وسنان
إن لم تكن قوة للمرء بالغة … فكل حق به قد لاذ بطلان (١)

° ° °

الشرق ما زال يحبو وهو مغتمض … والغرب يركض وثبا وهو يقظان
والغرب أبناؤه بالعلم قد سعدوا … والشرق أهلوه فى جهل كما كانوا
الغرب يشغله مال ومتربة … والشرق يشغله كفر وإيمان
الغرب عزّ بنوه أينما نزلوا … والشرق إلا قليلا أهله هانوا
الطائرات وتلكم من مراكبهم … كأنها فى عنان الجو عقبان
أما مراكبنا فى كل مرحلة … فإنها ليعافير وبعران (٢)

° ° °

وللغرب أعوام وللشرق مثلها … ولكنما الأعوام فى الشرق تسئم
وفى الغرب أفراح وفى الشرق غمة … وما الأرض إلا جنة وجهنم
شقيقان هذا يعل أبنائه بهم … مضىء وهذا يوم أهليه مظلم
وتختلف الأخلاق إلا أقلها … ويختلف التفكير والعرق والدم
بل اختلفا فالغرب منصرف القوى … إلى فعله والشرق بالقول مغرم

---

(١) الأوشال ص٤٦ وهى طويلة نظمها بمناسبة وعد (بلفور) المعروف.

(٢) من قصيدته (إلى شيخ المعرة) الأوشال ص ٦٦

ونحن تثبطنا وهم قد تعجلوا ونحن تأخرنا وهم قد تقدموا
وما كان مجد كان يبنيه أهله كمجد بأيدى أهـله يتهدم
أدير عيونى فى الوجوه فلا أرى سوى الذل مقروءا ولا أتوسم
يريدون ألا يشكو الحزن ثاكل وألا يئن المثخن المتألم
من الناس آلاف يعضهم الطوى وفى كل ألف واحد يتنعم (١)

ﹾ ﹾ ﹾ

ولم يكن الحكم الوطنى فى العراق عهد ازدهار ناصع البياض ، خال من الشوائب والأشواك . ولا سيما ، أنه كان مقيداً بالاستشارة البريطانية ، أولا ، ثم بالمعاهدة العراقية البريطانية .

وقد سجل (الزهاوى) سلسلة من مساوىء الحكم الذى رزح فيه العراق ومن يقرأ ديوانيه (الأوشال) و (الثمالة) ، يقف على مظاهر عامة لطبيعة تقلب السياسة وأحداثها فى العراق منذ الاحتلال حتى وفاته .

ﹾ ﹾ ﹾ

ويل لمملكة قضى إهمالها من أهلها أن يفشل استقلالها
ولبلدة منكوسة قد أنكدت علماؤها وتنعمت جهالها
ولأمة بعد الوفاق تخالفت فتقطعت لخلافها أوصالها
من كل عاصمة الرشيد لأهلها لم يبق إلا طيفها وخيالها
عاثت بها فتاكة أبناؤها فكأنما أبناؤها أغوالها
تقفو خطى الآباء أنجال فما الآباء راشدة ولا أنجالها
إن جد بين الغى يوما والهدى حرب فأين من الوغى أبطالها
دخل الذئاب حمى العرين تدوسه لا الأسد تحميه ولا أشبالها

ﹾ ﹾ ﹾ

أما النجاح فلا نجاح لأمة ما أيدت أقوالها أفعالها

---

(١) الثمالة ص ١٠ وأنظر أيضاً قصائده (كان مالا يكون) و (لاتعيش الشعوب بالأحلام) فى اللباب ص ٢٧٠ — ٢٧٣

غلّت فما أبدت أقل تذمر   قد صارعت آمالها آلامها
لم يبق عند بنى العراق سوى المنى   أما المنى فطويلة آجالها (١)

* * *

تلغى معاهـدة وأخرى تعقد   والشعب يستفتى لها ويهدد
والشعب يطرى للجهالة خنجراً   فى صدره عما قريب يغمد
وكأن يوم الغاصبين لحقهم   ليل وهـذا الليل بحر مزبد
أما الزعيم فما تحرك ذائدا   عن حقهم منه اللسان ولا اليد
كنا نؤمل أن نراه منجدا   وإذا الذى هو منجد لا ينجد
كسدت تجارة كل شىء عندهم   إلا النفاق فانه لا يكسد
كل الذى فيهم قديم مخلق   إلا العداء فانه يتجدد
الشعب بالقيد الثقيل مكبل   حتى يكاد إذا تحرك يقعد
للبعض كوخ واطىء ولبعضهم   صرح كما شاء النعيم ممرد
هذا يضاجعه الرفاه وذاك فى   سغب ينام وقد أقضّ المرقد(٢)

لا عليك أن تروح إلى أن (الزهاوى) قد شب ثائراً وصال صولة حر يريد لبلده استقلاله وحريته . ولكن هذه النزعة فيه ، وهذا الحماس الذى شب عليه قد عكرته ظروف الاحتلال فسكت سكوتاً شانه ، ونغص عليه حياته ، فمات عندالناس قبل أن يموت . ولكنه استطاع أن يعيدلنفسه بعض مكانتها ، فى الحكم الوطنى ، فشارك فى النضال مشاركة شيخ يميل إلى النصح تارة وإلى الثورة تارة ، فكان شعره يتفاوت تفاوتاً تجد فيه اندفاعه المعهود وخذلانه وانهزامه المعهود .

* * *

(١) من قصيدة (ويل ثم ويل) يصور بها حالة العراق ويودع الأساتذة المصريين الذين زاروا العراق فى شباط (فبراير) ١٩٣١ . انظرها فى (الأوشال) ص ١١١
(٢) الأوشال ص ٦٤ وعنوان القصيدة (يستفتى ويهدد)

٢ – شعره الاجتماعى

صحب التردى الاقتصادى الذى انتاب العراق طوال العهد العثمانى موجة متعاقبة من الجهل ، والتمسك بالعادات البالية ، التى كانت نتائج طبيعية لما انتاب الناس . وبدأ أثر التحلل الخلقى والاجتماعى فى كثير من نواحى الحياة – فى السلب والنهب ، وقطع الطرق والزور والتملق للحاكمين . وصحب هذا كله تعصب شنيع لكثير من العادات والتقاليد السخيفة .

وكان طبيعياً أن تستفحل هذه الأرزاء ما دام الناس يعانون أزمات خانقة . ويعيشون فى ظل نظم قصاراها أن تشدد وتستبد . ويبدو أن السلطة الحاكمة قد استهواها ما عليه الناس ، فسخرت فئة من مؤجريها ، يطوفون على الناس ليضللوهم ويباعدوا ما بينهم وبين ما به تيقظ أو التفات إلى إنسانيتهم.

وكان لاتصال الشرق بالغرب فى أواخر القرن الماضى ، وللجمعيات والمنظمات التى أسسها العرب ، أثر فى شن حملة واسعة على ما به الناس ، وطلب الإصلاح الاجتماعى والعدالة الاجتماعية .

ونجد (الزهاوى) منذ نشأته يجند نفسه لهذه الدعوة ويعمل لها . وقد انتظمت دعوته هذه منهجا عمل له عمره .

ومن يستعرض شعره يجده ذا طوابع متباينة ، يرجع كثير من تباينها إلى طبيعة الصورة الشعرية التى التزمها فى عرض فكرته أو دعوته .

فلقد كان ولوعا من حداثته بالشعر القصصى يصور به بعض الأرزاء والأدواء التى حفت قومه . وليس الشعر القصصى بحديث فى العربية ، فقد عرفته بين الغزلين من العذريين والإباحيين ، وعرفته بين الغزلين المتعففين، ولكنها لم تعرفه اجتماعيا يحفل بالناس .

ولم يكن (الزهاوى) فريدا بين شعراء العراق فى هذا اللون الشعرى ، فأنت واجده فى شعر الرصافى والشبيبى وغيرهما ، ولكن شاعرنا أكثر منه

حتى لتستطيع أن تدعى أنه كان الصورة المحببة إلى نفسه طوال العهد العثمانى .

وقد ترى فى قصص (الزهاوى) ما لا تحمده عليه ولا يستهويك ، وقد ترى أكثر ما سرد بالأقصوصة النثرية أحرى وبها ألصق . وهذا العيب الظاهر فى شعره القصصى قد يضاهى عيبه فى قصائده (الفلكية) و(الطبيعية) إذا ارتضيت التعبير .

ومهما يكن من شىء فإن هذا اللون الشعرى ذو قيمة اجتماعية ، تستطيع أن تتقصى منه ما شغل زمانه ، وبعض الاحداث التى عاصرها ، وترى فيه التفاتات إنسانية صادقة . وإذا فاتك أن تتمتع بتفاصيل قصته فلا يصدفنك هذا عن التمتع بالأحداث التى صورت .

ويبدو أن (الزهاوى) قد عمد إلى وسيلته هذه ، فسرد فى كل قصة من قصصه مأساة تصور جانبا ممتدا من الفوضى فى حياة الناس ، وليست هذه الجوانب ببدع ، فقد تجدها فى كل مكان ولكنها فشت فى العراق وغدت مظهر الحياة .

فقصيدته (سليمى ودجلة) (١) تصور حالة البؤس التى كان يلاقيها الضعفاء من العمال ، وتحكم السيدات الموسرات وطغيانهن على خدمهن . وتصور (إلى فزان) (٢) تعسف الحكومة ونفيها الأبرياء من خلق الله وأخذهم بالشبهات إلى ديار بعيدة عن أهليهم وذويهم ، وتعذيبهم هناك وتقتيلهم . وفى (مقتل ليلى والربيع) (٣) يبرم بالسلب والتعرض بالأبرياء والبريئات وإراقة دمائهم لفقدان الأمن ، وترى النغمة نفسها فى (سعاد بعد زوجها) (٤)

وتصور (ياذكاء) (٥) قصة شاب عضه الفقر ، وانتابه السل ، والآلام

---

(١) الكلم المنظوم ص ٦٦ (٢) الكلم المنظوم ص ٧٣

(٣) الكلم المنظوم ص ٧٧

(٤) « « « ١٣٥ وأنظر (طاغية بغداد) فى ديوان الزهاوى ص ٧٣

(٥) « « « ١٢١

التى جرها فقره ومرضه حتى أرداه الموت . و (سلمى المطلقة) (١) قصة شاب طائش تزوج فتـــاة ليعيش بمالها حتى إذا استنزفه هجرها ثم طلقها وارتمى بأحضان أخرى موسرة .

لم يوفق (الزهاوى) — كما قلت — فى قصصه هذه فنيا ، فقد ظل شأن الخطيب يشحذ النخوة ، ويستثير الحكومة القائمة والناس ، وراح إلى تفاصيل يضيق بها الشعر ، وتنبو عنها مقوماته . ولقد أراد لها — كما يبدو — أن تشيع فى الناس ، وأراد أن يثيرها حملة على الحاكمين . ولم يوفق أيضاً وهو يكد وراء تفاصيل قصصه إلى لمحات تحتضن طرفاً كبيراً من الإثارة والاندفاع . فكأن أحداث قصته وأهوالها شغلته عن هذا ، وحسبى أن أروى طرفا من قصته (إلى فزان) :

شتاء وريح فى دجى الليل زعزع ... تكاد بها جدر المنازل تقلع
ورعد يصم الأذن صوت دويه ... وبرق سحاب بالتتابع يلمع
لقد حاربت بعض الطبيعة بعضها ... فزال بها الأدنى وصال المرفع
سماء بداجى الليل قد ثار غيظها ... وأرض بما فيها تئن وتجزع
فقد سمعت فى ليـــلة مثل هذه ... إلى الباب (سعد) أنه كان يقرع
فقالت وفى القلب اضطراب لزوجها ... (نديم) وقيت الحادثات أتسمع
فقام وسعدى خلفه تسرع الخطى ... إلى الباب يسعى فى الظلام ويهرع
وساءل من هذا الذى جاء طارقا ... بحالك ليل كل ما فيه مفزع
أجيب أن أفتح يا نديم فإننا ... بأمر من الوالى أتيناك نسرع
فسر معنا واحضر لديه معجلا ... خطاك فما فى الوقت فضل يضيع
فقال عسى أن تمهلونى ليلتى ... لصبح غد فالليل داج مروع
فقالوا له لا ريث فى الأمر والذى ... تعذَّرت يا هذا به ليس ينفع
فقال لسعدى أننى بعد ساعة ... إلى البيت لا تخشين شيئاً سأرجع

(١) الكلم المنظوم ص ٢٣٩

وسار على ومض من البرق لامع يصاحبهم والقلب بالهم موجع
وفكر طول الدرب في السبب الذي دعاه إلى الوالي ولا شيء يقنع
ترى هل شكاني من شرير أو افترى عدو بضري فارح متمتع
على كل حال فاطلابي بليلة تهول كهذي غير ما أتوقع
وأدخل في داربها شرط لها رئيس على كرسيه متربع
فباغته ذاك الرئيس بقوله لأنت إلى فزّان تنفى وتدفع
جزاء كلام في الحكومة طاعن تفوه به بين الأنام فيسمع
فجاوبه والقلب للخوف راجف وقال بصوت خافت يتقطع
فديتك ما هذا صحيحاً وإنه لما افتراه المرجفون وأبدعوا
ولو شئت أحضرت الشهود فربما إذا أبصروا ذلي عن الزور أقلعوا
ترفّق فإني ذو عيال إذا خلا مكاني ماتوا في المجاعة أجمع
فلي زوجة في البيت تحيا وأمها وطفل صغير السن مازال يرضع
ترى أنني يا سيدي لست جازعا لنفسي ولا للنفس تالله أضرع
فقال له لا تكثرنّ فإنما إرادة مولانا بنفيك تقطع
فقيد بإذلال وأركب بغلة تساق شديدا وهو يبكي ويجزع

٭ ٭ ٭

مضت ساعة من بعد أخرى مخوفة ولكن نديم ليس للبيت يرجع
فزاد الذي في قلب سعدى من الأسى عليه وأمسى فكرها يتوزّع
تقول بإشفاق وفي كل ساعة إلى الباب من شباكها تتطلع
تأخر يا أماه بعد ذهابه نديم وإن الصبح قد كاد يطلع
وما طلب الوالي نديما وما له لعمرك في أمر الحكومة إصبع
وإن الذي مازال في الكسب شغله فليس لأبواب السياسة يقرع
أخاف عليه غدر أعدائه به ولست بما تسلين يا أم أقنع

وإن فؤادى آه يا أم فاعلى ... يكاد عليه بالأسى يتصدع
فما ذاق طعم النوم للصبح عينها ... ومن كان ينأى إلفه كيف يهجع
فلما استبان الصبح جاء لبيتها ... شفيق من الجيران عيناه تدمع
فأخبر سعدى أنه سيق زوجها ... لفزان منفيا فما فيه مطمع

* * *

فصاحت لنفسى الويل مما أصابنى ... لقد كان واحراه ما منه أفزع
نأوا بنديمى البر عنى فليتنى ... فداء له مما أصابوا و أوقعوا
فنى كل عضو لى أذى لفراقه ... كأن على جسمى أراقم تلسع
ولى بين أحناء الضلوع لفقده ... فؤاد بفورات الهموم مروع
تضم بتحنان إلى الصدر طفلها ... وتبكى كما يبكى الحزين المفجع
وتسجع من حزن على فقد إلفها ... نديم كما أن الحمامة تسجع
وتدعوا بحر يا نديم وقلبها ... يكاد لداعى ما به يتقطع
أرى كل فتق سوف يرقع وهيه ... وليس على الأيام وهيك يرقع
فقد نابك الأفراح والجاه والغنى ... جميعا فانف العيش بعدك أجدع
قد استسهلوا أنى امرئ وليسائلوا ... فؤادى عن الهم الذى يتجرع
فمن ذا وقد أقصوك عنا يعيشنا ... ومن ذا به من ذا به الجوع ندفع
لقد كنت لى زوجا وخلا محاميا ... يرد صروف الدهر عنى ويمنع
سألزم بيتى غير بارزة إلى ... فضاء فلى فى الدار مبكى ومجزع
تصاحبنى فى البيت أمى فإن أبت ... يصاحبنى فيه الحنين المرجع
على أننى أهوى الفضاء فإنه ... إذا ضاق صدرى بالهموم موسع
وأهوى كذاك الشمس فيه لأنها ... عليك إذا ما زرت فزان تطلع
إذا هب أرواح النسيم فان لى ... فؤاد إلى مرآك يصبو وينزع

وما سكني فى الدار بعدك إنها   بعيني إذا لم تسكن الدار بلقع

* * *

ويبدو أنه نشط منذ شبابه إلى التبشير بالدعوة الفكرية الجديدة ، والحث عليها . والتنديد بما عليه القوم من جهل ضارب أطنابه ، وتمسك بتقاليد وعادات بالية كانوا يظنونها فرضا من فروض الدين ، أو شعاراً من شعاره ، فحث على قبول المبادئ الجديدة والتبصر بها ، والانطلاق مما كبل الناس به أنفسهم وليس له سند فى الدين ولا فى أصوله .

بثوا بألسنة لكم من نار   ما فى جماجمكم من الأفكار
سيروا إلى غاياتكم فى جرأة   كالسيل هداراً وكالإعصار
ثوروا على العادات ثورة حانق   وتمردوا حتى على الأقدار

* * *

كونوا جميعاً سادة لنفوسكم   فالعصر هذا سيد الأعصار
وتقدموا متواثبين لتلحقوا   بالسابقين الغر فى المضمار
لا تقبلوا فى الدين ما يروونه   إلا إذا صح فى الأنظار
إن اليقين لفى الشهود جميعه   والشك كل الشك فى الإخبار
أنضوا القديم وبالجديد توشحوا   حتام تختالون فى الأطمار
وتملصوا من نير كل خرافة   خرقاء تلق الريب فى الأفكار
وتحرروا من قيد كل عقيدة   سوداء ما فيها هدى للسارى
قولوا الحقيقة جاهرين وأعلنوا   للناس ما فيها من الأسرار
هى غادة حسناء إن لم نحتفل   بجمالها ذهبت إلى الأغيار
أنسومها خسفا ونوسعها قلى   يا للجهالة ثم يا للعار
إن الحقائق كالصباح جميلة   للناظرين وكالنجوم عوار(١)

---

(١) الأوشال ص ٢٠ — ٢١

وقد دفعه حماسه هذا واندفاعه إلى أن يندد بكثير مما عليه الجمهور (١) ويتطرف أحيانا فلا يرى فى هذا النعيم الذى وعدوه به بعد موته إلا خداعا، والخير كل الخير فى نعيم معجل.

وعدونى بعد الحمام نعيما ليت ذاك النعيم قبل الحمام (٢)

وينعى على الناس قبولهم ما هم فيه ورضوخهم له، وهذا التمسك بعادات قاتلة.

إنا لمربوطون من عاداتنا بسلاسل كسلاسل الأغلال (٣)

ويرى أن علة ما وقع فيه القوم ابتلاء العراق بثلة رجعية لا تريد له نهضة ولا صلاحا، خدعوا الناس حتى راقهم الهوان وارتضوه.

أبكى ومثلى بالبكاء حقيق آمال شعب ما لها تحقيق
ولقد يذكرنى بعز آفل برق له خلل السحاب خفوق
منى العراق بثلة رجعية جو العراق بشعرهم مخنوق
ما بال دنيا المسلمين تأخرت أهناك شىء فى الخفاء يعوق (٤)

° ° °

أبناء دجلة والفرات نيام عن حقها وتسرها الأحلام
وإذا الحقائق لم تجد فى أمة سنداً تقوم مقامها الأوهام
أتنيل بغداد الأديب سلامة أم ليس فى بلد السلام سلام
إن العراق به يعيش لشقوة شعب يسام الذل ثم يسام

(١) انظر: لغة العرب ج ٦ من السنة السادسة، تقريض (اللباب)

(٢) اللباب ص ٢٧٢ وانظر قصيدته (الدمع ينطق) التى قامت عليها ضجة فى (اللباب) ص ٢٢٢ وقصيدته (الدنيا قبل الدين) فى الثمالة ص ٤٢ — ٤٥

(٣) الاوشال ص ٣٠

(٤) الاوشال ص ٥٠ — ٥١

ألفوه حتى صار فيهم طابعا   من طول ما صفعتهم الأيام
لو كلفوا مشياً على أرآسهم   لمشوا كأن رؤوسهم أقدام (١)

* * *

وقد فزع (الزهاوى) من التفاوت الطبقى الذى أكل البلاد ، وأردى طبقة تعمل عمرها ليعيش نفر من الناس على رؤوسها ، وأسهم بحملة إنسانية تجد صداها فى كثير من شعر معاصريه كالرصافى (٢) والشبيبى والكاظمى ، وامتدت حتى بلغت أوجها الثائر عند (محمد مهدى الجواهرى)

اجعل البأساء مقيا   سا لسراء الحيـــاة
وانظر الأكواخ فى جنـ   ـب القصور الشاهقات (٣)
أيهـــا الشبعان ما قو   لك فى النـــاس الجياع
أترى أن لهم فى   أرضهم حق المساعى (٤)

* * *

جمعوا من ساكنى الأكواخ   أمـــوالا دثـــورا
وأتوا فى جانب الأكواخ   يبنون القصـــورا (٥)

* * *

ولم يكن شأن غيره ليستوحى هذه الطبقة البائسة كثيراً ، ولم يدفعه بؤسها إليها كثيراً ، وكل ما تراه له لمحات خاطفة سريعة . وقد تكون قصيدتاه (نكبة الفلاح)(٦) و (أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا) فريدتين فى هـذا

---

(١) الاوشال س ٥٠
(٢) انظر هذا تفصيلا فى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث: انيس المقدسى ج٢ س ٢٠ وبعدها.
(٣) رباعيات الزهاوى س ٣٤ و (اللباب) س ١٢١
(٤) اللباب س ١٢١ والرباعيات س ٣٤
(٥) المصدر نفسه
(٦) انظرها فى : الاوشال س ٢٥

الميدان العكر، الذي وجد معاصروه فيه ما شحذ قريحتهم فانصرفوا إليه وأبدعوا . والواقع أن فيضان الفرات قد دفعه إلى التعرض بالفلاح فى قصيدته الأولى ، وأن قصيدته الثانية تذكرنا بطابع شعره القصصى ، إذ نلمح فيها روح الخطبة لا روح الشعر .

إنَّ من كدوا يزرعون البقاعا ... أشبعـــوا غيرهم وباتوا جياعا
ربح المالكون الأرض غصباً ... ومضى كد الزارعين ضياعا
يفقر الدهرُ ألفَ بيت ليُغْنى ... واحدا من أفراده جماعا
لا ترى بين أوليهم ثَريـــاً ... كانزاً للأمـــوال أو مناعا
ومن العدل أن يكون نتاج الأ ... رض بين المستثمرين مشاعا
إن بين الحق المحصحص والبا ... طل منذ الدهر القديم نزاعا
رضى العاملون بالوهد مأوى ... وأبى المالكون إلا اليفاعا
أفريق يفوز بالعيش رغـــداً ... وفريق يكابد الأوجاعا
إنما الدين وهو أكبر هاد ... لا يراعى الألوان والأوضاعا
وكتاب الله العظيم يساوى ... بين من كانوا سادة ورعاعا (١)

* * *

وإذا أردت أن تقف على دعوة ناهضة حقا ، اعتصم بها رائدها اعتصام مؤمن ، ووقف لها نفسه ، فإن الدعوة إلى (تحرير المرأة) قد كانت أسمى ما أبدعه الزهاوى فى الميدان الاجتماعى ، وأجود ما نظم .

ويتميز على معاصريه بانقطاعه إليها وتعلقه بها تعلقا طغى على شعره . وقد كانت دعوته واضحة فى هذا الشأن ، عرض للأرزاء التى حفت المرأة فى العراق خاصة والشرق عامة فى عهده ، من حجاب ثقيل ، وقبوع فى بيتها ، وتشديد عليها وانتقاصها .

---

(١) الثمالة ص ٥٦

فالرجل سيدها ، يزوجها من يشاء ومتى يشاء ، ويطلقها متى يشاء ، وهى همل قصاراها أن تقبع وراء جدران بيتها ، والغريب أن نبل الرجل قد علق بها وحدها ، فهى إن أطلت على بيت جارها فقد ودعت الفضيلة وأهانت كرامة ذويها ، وهم فى حل من أمرها أن فسروا سلوكها تفسيرا شائنا فى عرفهم ، لهم أن يقتلوها ولهم أن يزيحوها عن دنياهم كما شاؤا . وكان الرأى ألا تثقف وألا تشم نسيم الحياة ، فتعلمها عار عليها ، وإسهامها بميدان الرجل عار عليها ، فهى كالمتاع يرمى فى زاوية من زوايا الدار ، للرجل أن يقلبه ليتمتع به ، وله أن يبقيه هملا .

ولقد كان للضجة التى أقامها الزهاوى ومعاصروه أثر كبير فى زحزحة كثير من التقاليد والعادات التى أضرت بالمرأة وضيقت خناقها ، فتنازع القوم الآراء الجديدة فيها — شأنهم فى كل جديد — ولقيت الدعوة مناصرين اعتصموا بها ، ولم تعدم ثائرين عليها برمين بها ، وجازت المسألة الحدود الطبيعية ، وأسلم النقاش فى شأن المرأة إلى نقاش فى الشريعة وأصولها ، ولم يتورع بعض المتعصبين من اتهام ذوى الدعوة الجديدة فى دينهم واعتبارهم مرقة متزندقين خرجوا على الدين الحنيف . ولكن هذا كله لم يثنهم عن دعوتهم ، فقاوموا وناضلوا حتى بدت تباشير فلاح دعوتهم ؛ وأينعت ثمارها.

وتتلخص دعوة الزهاوى فى مظاهر أربعة من حياة المرأة العراقية .

١ — الدعوة إلى السفور .

٢ — مكافحة تعدد الزوجات .

٣ — نقد طريقة الزواج .

٤ — الدعوة إلى تعليمها ومشاركتها بالحياة العامة .

وقد دعا إلى السفور أول عهده بالنظم ، فصرخ صرخات مؤثرة تحس فيها صدقه واندفاعه وطموحه إلى انقلاب فى حياة المجتمع يصحب تحرر المرأة وسفورها ؛ ورأى أن حجابها عار عليها ونكر ، وليس فى الشريعة

شفيع له أو مبرر ، وندد بما نسبوه إلى السفور من خروج على الفضيلة وانحدار إلى الرذيلة .

أسفرى فالحجاب يا ابنة فهر   هو داء فى الاجتماع وخيم
كل شىء إلى التجدد ماض   فلماذا يقر هذا القديم
لقد اعوج بالحجاب لعمرى   أمر دنيانا فهو لا يستقيم
انزعيه ومزّقيه فقد أنكره الـ   ـعصر ناهضاً والحلوم
اسفرى فالسفور للناس صبح   زاهر والحجاب ليل بهيم
وارجمى كل من يلومك فيه   إن شيطان اللائمين رجيم
لم يقل بالحجاب فى شكله هذا   نبى ولا ارتضاه حكيم
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا   ق والعقل والضمير ذميم
السفور السفور فالهلك   للشعب أخيراً بدونه محتوم
زعموا أن فى السفور انثلاما   كذبوا فالسفور طهر سليم
لا يقى عفة الفتاة حجاب   بل يقيها تثقيفها والعلوم
هذبوا أرواح العذارى لتبقى   سالمات من العذارى الجسوم(١)

* * *

عزوا الحجاب إلى الكتا   ب ، فليتهم قرأوا الكتابا
إن التعصب مانـــع   أن تبصر العين الصوابا(٢)

* * *

زعموا أن فى السفور سقوطا   فى المهاوى وأن فيه خرابا
وإذا ما طالبتهم بدليـــل   يثبت الدعوى أوسعوك سبابا

---

(١) اللباب ص ٢٣٥ — ٢٣٦ و (الكلم المنظوم) ص ٩٠و١٧٧
(٢) الأوشال ص ١٨٠

كذبوا فالسفور عنوان طهر ليس يلقى معرة وارتيابا

° ° °

وتحس إيمان (الزهاوى) بهذه الدعوة التى كانت فى عرف الناس ضلالا ، وإقدامه عليها فى قصيدته (هى الحقيقة) ، التى نظمها بعد أن توالى الصخب وكثرت الضجة عليه ، وقاومه المتعصبون .

هى الحقيقة أرضاها وإن غضبوا وأدعيها وإن صاحوا وإن جلبوا
أقولها غير هيّاب وإن حنقوا وإن أهانوا وإن سبوا وإن ثلبوا
أن يقتلونى فكم من شاعر قتلوا أو ينكبونى فكم من عالم نكبوا
ولست أول من أبدى نصيحته لقومه فأتاه منهم العطب
يا قوم أنتم على غَىٍ يَضُرُّ بكم أما هناك فتى للرشد ينتسب
أن السماء التى تعلو مرابعكم منها لأجلكم الخيرات تنسكب
هو التعصب قد والله أخركم عن الشعوب التى تسعى فتقترب
عن الذين أبوا إلا تقدمهم عن الألى مشيهم نحو العلى خبب(١)

وكان كفاحه فى هذا الميدان مجتمعا ، فقد يدعو إلى السفور — ويندد بتعدد الزوجات ويدعو إلى انطلاق المرأة بالحياة العامة فى قصيدة واحدة ، وقد يتشبث بكل من هذه فى قصيدة واحدة ، وتهيأ له فى كثير من قصائده نضج فنى دال على أصالة وإبداع .

ليس يرقى الانسان إلا إذا نالت رقياً إناثه والذكور
مثلما كل طائر بجناح واحد فى سمائه لا يطير(٢)

° ° °

(١) ديوان الزهاوى ص ٣٠٦ وانظر دعوته إلى السفور فى الديوان ص ٣٠٨ — ٣١٦ وذمه تعدد الزوجات فى الديوان ص ٦٨

(٢) اللباب ص ٩٤

إنمــا المرأة والمر ء سواءٌ فى الجــداره
علمــوا المرأة فالمر أة عنوان الحضاره

* * *

يرفع الشعب فريقــان إناثه وذكور
وهل الطــائر إلا بجناحيــه يطــير (١)

* * *

النـاس فى الشرق ضــلوا سبيــلهم وأضــلوا
وبالحيــاة استخفــوا وبالحقــوق أخــلوا
ظن النسـاء رجال صنفا أذاه يحـل
وأنهن كحيــوان ليس يهديه عقــل
وأنهن متــاع لهم من النفس يخلو
وأنهن ملــذات تشتهى وتمــل
لأربع محصنــات منهن يكفل بعل
وكل ذلك منهم إذا تأملت جهــل
للمرأة اليوم فى مجلــس القضــاء محل
للمرأة اليوم فى البر لمان عقـد وحل
للمرأة اليوم فى استكشــاف الحقـائق شغـل
للمرأة اليوم فى تحســين الحضـارة فضـل (٢)

وكان طبيعيا أن تفلح هذه الدعوة التى شغلت طلائع النهضة الاجتماعية فى العراق فى عهد مبكر . فتشارك الفتاة فى التعليم ، وتهيأ لهـا المدارس ، وتخف وطأة المتعصبين ، ويمر الحجاب بأدوار ، ويرتضى الناس تخفيفه .

---

(١) اللبـاب ص ١٢٦

(٢) ديوان الزهاوى ص ٣١١ وأنظر (زواج الاكراه) ص ٣١٤ ، وللباب ص ٢٥٤

وسرعان ما بانت وجوه النشء الجديد من المتعلمات سافرة ، فاستبشر الزهاوي وعلا صوته مغرداً قبل أكثر من عشرين عاما .

من بعد ما انْتَظَرَتْ حقاباً ثارت فمزقت الحجابا
عربية عرفت أخيراً كيف تنبذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
وسيطلب التاريخ من ناس لها ظلموا حسابا
سألت لها حرية منهم فما لقيت جوابا
حتى إذا ما استيأست خرقت بأيديها النقابا
فرأت أمام سفورها للمجد آمنة رحابا
ذهبت كزوبعة لها صخب فأخذت الذهابا(١)

ولا تحسبن هذا الذي تطلع إليه واستبشر به ، ثورة ثارتها المرأة متعمدة على حجابها ، لكن المقام حبب للزهاوي أن يجعل من المرأة مغلوبا غالب الدهر حتى غلب ، والواقع أن الاستجابة للسفور وطلب العلم والمشاركة ببعض ميادين الحياة قد حببت إلى الناس ، وانصرف كثير من الآباء عما ظنوه من تقاليد الحياة السليمة .

وليس تراث الزهاوي الشعري في هذا الميدان خاصة مما نظن له الخلود ، لأنه عرك مشكلات غير خالدة ، ولم يكن مستوحيا ؛ بل غلبت عليه نزعة إيعاظ ، وأخذ بالتفاصيل والجزئيات التي تباعد الشعر عن الخلود .

ولا ننكر عليه بعض اللمحات الأصلية في بعض قصائده ، وهذه وحدها سترددها الأيام . وإذا فات الابداع الفني الخالد كثيراً من شعره هذا ، فإن في ثناياه ما يكشف عن صفحة من محنة العقل في بلدنا ؛ ومازال البعض جاثماً راسخاً ، لأن باعثه الأصيل قائم ، تلهى عنه الذين وهبوا أنفسهم للاصلاح .

---

(١) اللباب ص ١٨٠

الفصل الرابع

ثورة فى الجحيم

ملحمة عدتها (٤٣٥) بيتا ، التزم فيها قافية واحدة ونشرها عام ١٩٢٩ فأثارت ضجة ، وكان لها صدى فى الشرق والغرب ، وتصدى لها كثير من الأدباء تعليقا وتجريحا ، برم بها المتزمتون من معاصريه ، ونددوا به وحنقوا عليه ، ولم يتوان بعضهم عن أن يشكوا لجلالة الملك (فيصل الأول) ، وقالوا إن الملك عاتبه عليها ، فلم يجد بدأ من أن يصرخ بين يديه : ماذا أصنع ياسيدى ! ، عجزت عن إضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء (١)

وما من شك فى أن (ثورة الزهاوى) صدى لثورة (أبى العلاء المعرى) من قبله ، فقد تأثر (برسالة الغفران) تأثراً واضحا ، فى الفكرة ذاتها وفى كثير من المشاهد التى عرض لها ، من تصوير أهل الجنة والنار ، ومن ألنى هنا وهناك .

وتأثر بتيارات أخرى أدركها خلال اللغة التركية التى كان يتقنها ، والتى تهيأ لها اتصال مباشر بالفكر الغربى الحديث قبل العربية .

فليس من شك أنه قرأ (الكوميديا الألهية) لدانتى وأعجب بها ، فلقد عنى الفيلسوف التركى (رضا توفيق) بتلخيصها والتعليق عليها برسالة طويلة صيرها مقدمة لبحثه المعروف عن (رسالة الغفران) لأبى العلاء .

ويرى الأستاذ (إسماعيل أدهم) (٢) ، أن الزهاوى كان مولعا بشاعر

---

(١) أنظر مجلة الرسالة عدد ١٩٣ مارس ١٩٣٧

(٢) مجلة الأمام . مارس ١٩٣٧

الأتراك الكبير (عبد الحق حامد)، أعجب به وقلّب كثيرا من كتبه ، وراح إلى أنه استوحى بعض رواياته (فكتور هوجو) ولا سيما روايتاه (DIEN الله) و (LA FIN DE SATAN نهاية الشيطان) . وقد عرف فلسفة (عبد الحق) و (هوجو) مما كتبه (رضا توفيق) أيضا . فلقد جنح شاعر الأتراك الكبير بعد وفاة زوجته لتأمل الوجود والفناء ، والخلود ، والطبيعة وبث كثيرا من تأملاته وآرائه الفلسفية فى دواوينه .

وكان (رضا توفيق) بارعا باستقصاء هذه الفلسفة وتحليلها ومناقشتها ، وجرّه هذا إلى مقارنة كثيرة من آراء (فكتور هوجو) بروايتيه المعروفتين ، فلخصهما تلخيصا متقنا أبقى على روحهما .

قرأ الزهاوى هذا كله ، وتأثر — دون شك — به كله ، واستوحاه كثيرا . فهيكل ملحمته ومجراها كبير الشبه بما نعرفه فى رسالة المعرى ، ونرى كثيرا من العبارات التى يسوقها (هوجو) على ألسنة الملاك الذى اتخذه رمز العقلية ، والبومة التى اتخذها رمز التشكك ، والغراب الذى اتخذه ، رمز المزدكية . والوطواط الذى كان رمز الإلحاد ، يسوقها الزهاوى على ألسنة أشخاص فى الجحيم ، وذلك بما يقرب من النصوص التى لخصها (رضا توفيق) عن الفرنسية فى كتابه عن (عبد الحق) .

ومهما يكن من شىء فإن الزهاوى استوحى السبيل العامة التى انتهجها ، واستوحى كثيرا من التفاصيل ، ولكنه برع فى بث آرائه فى الاجتماع ، وثورته على التقاليد التى ظنها الكثيرون من أصول الدين . وصور ما أخذ به الناس فى هذه تصويرا أسبغ على ملحمته رواء فنيا ، وأسلوبا ساخراً مؤثراً .

وخلاصة ملحمته أن الشاعر يموت ويودع القبر ، فيظهر (منكر ونكير) ملكا الحساب كما لقنا ، فيصفهما وصفاً رائعاً تجد ظلاله فيما يدور بين الناس عن هذين الملكين .

لها وجهان ابتنت فيهما الشرة عشا كلاهما قمطرير
ولكل أنف غليظ طويل هو كالقرن بالنطاح جدير
وبأيديهما أفاع غلاظ تتلوى مخوفة وتدور
وإلى العيون ترسل نارا شرها من وميضها مستطير
كنت فى رقدة بقبرى إلى أن أيقظانى منها وعاد الشعور

ولم ينس أن يصور ما اعتوره دونهما ، وكيف ضاق به قبره ، وهلع صدره ، ولكنه لم نفسه وجاشه ، فراح يجيب عن أسئلتهما .

وأول ما يدهم به الشاعر ، كما هو الشائع بين الناس — أسئلة عن دينه وإيمانه ، وهل ارتضى الإسلام أو أنكره . وتحس فى هذا تنديد الزهاوى بالخرافات الشائعة ، وميله إلى (العقلية).

قال من أنت وهو ينظر شزرا قلت شيخ فى لحده مقبور
قال ماذا أتيت إذ كنت حيا قلت كل الذى أتيت حقير
قال ما دينك الذى أنت فى الد نيا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الإسلام دينى فيها وهو دين بالاحترام جدير
قال من ذا عبدت فقلت الله ربى هو السميع البصير
قال ما ذا كانت حياتك قبلا يوم أنت الحر الطليق الغرير
قلت لا تسألانى عن حياة لم يكن فى غضونها لى حبور
كنت عبداً مسيراً غير حر لا خيار له ولا تخيير
كان خيراً منى الحجارة تثوى حيث لا آمر ولا مأمور
قال هلا كسبت غير المعاصى قلت إن لم أكسب فربى غفور
كان إثمى أنى إذا سألونى لم أقل ما يقوله الجمهور
إنهم من أوهامهم فى إسار ولقد لا يرضيهم التحرير
رب أمر يقول فى شأنه الـ ـعقل نقيض الذى يقول الضمير

ويروح الملكان يسألانه عن تفاصيل كثيرة فى العبادات والفروض الدينية الأخرى — فى أركان الإسلام الخمسة وهل أقامها ، وفى الجهاد

وهل نفر اليه . وهل آمن بالبعث والنشور والحشر والميزان ، والصراط والجنة والنار . ولم يتورع دون هذه الأسئلة المتمادية من الكشف عما اعتور نفسه وخالجها فى هذه كلها ، وكأنه تقصى تبلبل أمرها فى نفسه ، فلقد ملأ الشك صدره ، ثم عاوده الإيمان وحفه الإلحاد ، وظل لايدرى ماهو عليه .

كان إيمانى فى شبابى جماً ما به نزرة ولا تقصير
غير أن الشكوك هبت تلاحيـ ـنى فلم يستقر منى الشعور
ثم عاد الايمان يقوى إلى أن سله الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم ألحدت حتى قيل هذا مذبذب مغرور
ثم دافعت عنه بعد يقين مثل ما يفعل الكمىُّ الجسور
وتعمقت فى العقائد حتى قيل هذا علامة تحرير
ثم إنى فى الوقت هذا لخوفى لست أدرى ماذا اعتقادى الأخير

ويمضى إلى وصف (الصراط) وصفاً ترى فيه نكراناً وسخرية ، ويتساءل تساؤل المنكر ، إذا صح أنه كغرار السيف أو كالشعرة ، فكيف العبور عليه ، ولكنه ينثنى ساخرا : إن الذين ضحوا بأكباش سيرون العبور هيناً ، ولو ضحى (الشاعر) بعيراً لسار على الصراط مرقلا به البعير .

لم يربنى أمر الصراط مقاما فوق واد من الجحيم يفور
غير أن أجل ربى من إتـــيان ما يأباه الحجى والضمير
فإذا صح أنه كغرار السيف أو شعرة فكيف العبور
ولعل الذين ضحوا بأكبا ش عليهم بها يهون المرور
أنا لو كنت بالبعير أضحى سار بى مرقلا عليه البعير

ولا ينثنى الملكان ، بل يلحان فى التساؤل عن أشياء أخر ، عن الملائكة والشياطين ، العفاريت ، وما الرأى فى هذا جميعا ، ويظل عقلياً كما هو شأنه لا يرضى إلا بما يدعمه العقل ويرضاه التفكير السليم .

غير أنى أرتاب من كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خـــطأ كلا ولكن قد أخطأ التفسير

والغريب أن الزهاوى لا ينسى فى ذلك الهول الذى هو فيه ، (السفور والحجاب) ، فكأن أمرهما من أمور الآخرة ، ومما سيحاسب عليه المرء ، ويظل يدعو — على شأنه — للسفور ويدع :

إنما فى الحجاب شل لشعب ... وخفاء وفى السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب ... منه نصف عن نصفه مستور
ليس يأتى شعب جلائل مالم ... تتقدم أناثه والذكور
أن فى رونق النهار لناسا ... لم يزل عن عيونها الديجور

ويكشف عن رأيه فى (الله) القدير ومدى إيمانه به ، وينعى عليه خلق أبليس الذى يلقى فى النفوس الشكوك والضلال ، ويضيق بالملكين ويصخب ثائراً هائجا ، ويقرعها تقريعاً مراً :

قال إنى أرى بخدك تصعيراً ... فهل أنت يزدهيك الغرور
قلت من مات لا يصعر خدا ... ليس بالموتى يخلق التصعير
إننى أخشى الظالمين فلا ... أفضى إليهم بما برأسى يدور
أى ذى مسكة يقول صريحا ... وعليه سيف الأذى مشهور
فدعانى فى حفرتى مستريحا ... أنا من ضوضاء الحياة نفور
أتركانى ولا تزيدا عنائى ... بسؤال فإننى موتور
لم تصن من جرأة المستبدين ... على الهالكين حتى القبور
قلت لما هبطت أعماق قبرى ... ليس خيرا من البطون الظهور

ويؤثر أن يدفع إلى جهنم ولا يجيب عما ليس للإنسانية به من خير ، أو عليها منه شر ، أمور هى بذات الإنسان ولذاته ، فلماذا عافا التساؤل عن (جهاده فى سبيل الحقوق) و (ذياده عن بلاده) و (وفائه) و (دفاعه عن النساء) و (نصرته للحق) و (عن صدقه) ، ويختم هذه الصرخة ببيت رائع حقاً .

أسكوت عن كل ما هو حق ... وسؤال عن كل ما هو زور

ولكن الملكين يصران على ما التزماه ، ويلحان عليه بأن يقول ما يرى فى شأن (يأجوج ومأجوج والسد) و (هاروت وما روت والسحر) ، ولم يطيلا كثيرا وإياه ، حتى تلاّه للجبين ، وأذاقاه العذاب :

وأمضانى بالمقامع ضرباً كدت منه فى أرض قبرى أغور
لم يكن فيهما يثير حنانا جسد لى دام ودمع غزير
ولقد صحت للمضاضة أبغى لى مجيراً وأين منى المجير
ثم صبا بقسوة فوق رأسى قطرانا لسوء حظى يفور
فشوى رأسى ثم وجهى حتى بان مثل المجدور فيه بثور
ثم أحسست أن رأسى يغلى مثلما تغلى بالوقود القدور

وبعد أن صبا عليه العذاب الأليم ، أبيا إلا أن يبعثا فى نفسه الحسرات والآلام ، فأخذا يطوفان به فى الجنة ليرياه نعيمها الذى حرمه . ويصف هذا النعيم وصفا لا تجد فيه جديدا لم تسمعه ولم تقرأه ، وجله صدى لأوصاف الجنة وخيراتها وصورها فى القرآن الكريم ، ولقد سخر بالحور خاصة ووصفهن بالخزى .

وعلى تلكم الأسرة حور فى حلى لها ونعم الحور
ليس يخشين فى المجانة عارا وإن اهتز تحتهن السرير

ولم يطل مكثه فيها ، فقد أخذا به إلى النار ، وجدّ فى وصفها بما يضاهى أوصاف الجنة روعة ، وأكثر معانيه مستوحاة مما نعرف عن النار ومما جاء فى القرآن الكريم أيضا .

ويزدرى بمن حشروا فى الجنة ، فكلهم من طبقة لم يدركها التفكير والوعى .

إنما مثوى الجاهلين جنان شاهقات القصور فيها الحور

وصارت النار مأوى المحبين ، فيها رأى (ليلاه) وحسناء أخرى تبكى حبيبها الذى أبعدوه عنها إلى الجنة ، وفيها طليعة الشعراء والفلاسفة والمفكرين

فيها (الفرزدق وصاحباه)، وفيها (المتنبي والمعرى) و (أبو نواس) و (دانتى) و (شكسبير) و (امرؤ القيس)، وفيها (عمر الخيام) يتغنى منشدا :

حبذا خمرة تعين على النيران حتى إذا ذكت لاتضير
وتسلى من اللهيب فلا يبقى متى شب منه إلا النور
إسقنى خمرة لعلى بها أرجع شيئا مما سبتنى السعير
واصلينى بالله أيتها الخمرة إنى امرؤ إليك فقير

وفيها (سقراط) يلقى خطبته، وبجانبه (أفلاطون) و (أرسطو) وهناك (كوبرنيكس) و (دارون) و (هيكل) و (سبنسر) و (نيوتن) و (روسو) و (فولتير) و (الكندى) و (ابن سينا) و (ابن رشد).

وجماعات غيرهم كلهم جلد على نارها وكلهم صبور.

ويبرم هذا الجمع بما هو فيه، ويبيتون الثورة على هذ الجور والطغيان، فيخترع أحدهم آلة تطفىء السعير، ويخترع آخر شيئا يهلك الناس مرة واحدة ويعرف ثالث شيئا يخفى الإنسان فلايرى.

ويقف أحدهم خطيباً تحيط به الملايين الموتورة من أهل النار.

قال يا قومنا جهنم غصت بالألى يظلمون منكم فثوروا
قال ياقومنا أرى الأمر من سوء.. الى الأسوإ الأمض يسير
قال يا قومنا احتملتم من الحيـ ـف ثقالا يعيا بهن البعير
قال يا قوم إننا قد ظلمنا شر ظلم فما لنا لا نثور
قال يا قومنا لا تخافوا فما فو ق شرور تكابدون شرور
ألأهل الجحيم بؤس وتعس ولمن حل فى الجنان سرور
ألنا أسفل الجحيم مقام ولهم فى أعلى الجنان قصور
إن أهل القضاء ما أنصفوكم فكأن القلوب منهم صخور

وتحفز أهل الجحيم وماجوا، ولبسوا عدة الكفاح وزحفوا للقتال.

وأبى « الزهاوى » إلا أن يجعل من « أبى العلاء » قائدا للجماهير ينشد الشعر ليثير فيهم العزم وهم وراءه يرددون .

المعرى : غصبوا حقكم فياقوم ثوروا إن غصب الحقوق ظلم كبير
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا إنما نحن للحقوق نثور
المعرى : لكم الأكواخ المشيدة بالنـــار وللبله فى الجنان قصور
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا إنما نحن للحقوق نثور
المعرى : إن خضعتم فما لكم من نصيب فى طوال الدهور إلا السعير
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا إنما نحن للحقوق نثور
المعرى : ماحياة الإنسان إلا جهاد إنما تؤثر السكون القبور
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا إنما نحن للحقوق نثور

وتسرع الزبانية حيال هذا الجمع ، وتعلوا حرب ضروس ينجد الشياطين فيها أهل النار ، والملائكة زبانيتها ، وتستمر حرب طاحنة ، يبدع الزهاوى فى وصف أهوالها ، وقد تكون من أجود قطعه فنية .

وينهزم جيش الملائكة ، ويحتل أهل الجحيم الجنة ، ويقيمون مهرجاناً يحيون به النصر الذى حباهم .

وتلاقى فوق الجحيم الفريقا . . . ن وهذا نار وهذا نور
فصدام كما تصادم أجبال رواسٍ ومثلهن بحور
وصراخ الجرحى إلى العرش يعلو وجروح المجندلين تغور
يترامون بالصواعق صفين فيشتد القتال والتدمير
حاربوا بالرياح هوجا وبالإعصار فى ناره تذوب الصخور
حاربوا بالبروق تومض والرعد فيغلى من صوته التامور (١)
حاربوا بالبحار تلقى على الجيش بحول وماؤها مسعور
حاربوا بالجبال تقذف بالأيدى تباعا كأنهن قشور

---

(١) التأمور — دم القلب

بالبراكين ثائرات جرت من حمم فيها أبحر ونهور
وقد اهتز عرش ربك من بعد سكون والدائرات تدور

وفى هذا يفيق (الزهاوى) من حلم طويل . فيه غصص وآلام ، وفيه تطواف سريع عند نعيم وجحيم ، وقتال احتدم فأعقبه النصر .

وتنبهت من منامى صباحا وإذا الشمس فى السماء تنير
وإذا الأمر ليس فى الحق إلا حلمـــاً قد أثاره الجرجير

و (الجرجير) بقلة وخيمة تؤكل ، جره إلى هذا الحلم الذى ترى فيه ثورته على كثير مما تفيأ به قومه ، وتحس تصويره لكثير من الآراء الشائعة فى أمر الحساب والعقاب ، والدنيا والآخرة .

وإذا صدق ما حدثه (الزيات) عن موقف الزهاوى حيال (الملك فيصل) وصرخته بأنه عجز عن إعلان الثورة فى الأرض فأعلنها فى السماء ، فإن مافى سمائه هذه لصدى لما فى أرضه ، وإذا لذت بالمجاز أدركت ثورة الزهاوى فى الأرض متشبثا بأهل السماء ، وأدركت فلسفة الرجل ، وكثيراً من آرائه فى شؤون الدين والدنيا .

والغريب أن الأدباء لم يعنوا بدراسة (الزهاوى) ولم يحفلوا به إلا لماما ، فلقد كتبت عنه مقالات قصيرة ، طابعها صحفى نشرت مبعثرة هنا وهناك ، لا تستطيع أن تسمها بالنضج أو بما تسم به الدراسة العلمية . وكتب عنه الأستاذ (روفائيـــل بطى) فصلين طويلين فى كتابيه (الأدب العصرى وسحر الشعر).

وكانت محاولة الأستاذ (بطى) منذ أكثر من ثلاثين عاما فاتحة مباركة لدراسة الأدب العراقى المعاصر ، فقد عنى بالشعر وكشف عن صفحات قد لا يدركها الناس لولاه ، وتهيأ للزهاوى من هذه الدراسة فصل طويل ظل أكثر من كتبوا عنه يرددونه أويستوحونه ، ولا أظن الأستاذ (روفائيل بطى)

يدعى لما كتبه عن الرجل استقصاء شاملا وتحليلا ، ليكشف عن نواحى إبداعه وما أسهم به لنهضة الشعر وأسداه للأدب عامة ، وإن كان أول من أرخ لحياته واختار له مجموعة طيبة من شعره .

وكأنه أدرك هذا ، فوعد فى كتابه أنه سيخرج على الناس بدراسة مفصلة عن(فيلسوف بغداد فى القرن العشرين) ، وقد تصرمت ثلاثون عاما ولم نسمع شيئاً عن هذا الفيلسوف النكد .

وظل الزهاوى هملا لم ينهض أديب لإحياء ديوانه ، ولم يذكر إلا فى مناسبات عابرة حتى ظهر كتاب (حقيقة الزهاوى) للأستاذ (مهدى العبيدى) قبل سبعة أعوام .

وترى فى كتاب الأستاذ العبيدى صدى مافى نفوس أكثر أدبائنا وشبابنا عن (الزهاوى) ، فلقد جار عليه وندد به .

الفصل الخامس

آثاره ومصادر دراساته ومختارات من شعره

(١)

ولع الزهاوى بتقليب شعره وتشذيبه وتهذيبه ، فتراه يؤلف ديوانا يضم نتاجه الشعرى فى فترة ، ويروح بعد أعوام يؤلف ديوانا آخر يضم إليه ما جد من نتاجه ، وكثيرا مما نشره فى ديوانه السابق . ولذلك كثرت مجموعاته الشعرية ، وجاء كثير مما حوت مكرورا .

وتراه فى ديوانه الأول (الكلم المنظوم)، يجمع شعره دون التعلق بالغرض الشعرى ، بل يلتزم الاطراد الزمنى ، ويعدل عن هذه السبيل فى (ديوانه) فيبوبه حسب الموضوعات ، ويعود إلى سبيله الأول فى مجموعاته الأخرى .

ولقد طبعت دواوينه منذ زمن مبكر ، وأشرف عليها فى حياته ، ولم تلق عناية تليق بها ، أو تجرك إليها طباعة ليس للفن فيها نصيب وأغلاط كثيرة مبثوثة .

وتكاد مؤلفاته ودواوينه تختفى من الأسواق ، وقد أكون صائباً إذا ادعيت أنها اختفت .

ولا ننكر عليه أن (الزهاوى) قد مد يديه إلى بعض الذين ذكرهم وتأثر بهم ، وربما سطا على شىء من آرائهم . ولكن للزهاوى أصالة وإبداع ، وله تجديد ودعوة ناهضة إليه ، كانت هـــذه كلها جديرة بالذكر وحرية بالإطراء والإكبار .

ويبدو أن بعض شعره – ولا سيما ما ظهر أيام الاحتلال ، قد أثار الأستاذ العبيدى عليه ، كما أثار كثيرا من الذين كتبوا عنه ، فأقبلوا عليه ساخطين .

ولم يعدم الزهاوى أدباء يدرسونه فى البلاد العربية ، فلقد خصته مجلة (الرسالة) ببحوث كثيرة ، ومجلة المجمع العلمى العربى بالشام بمقالات أيضا ، ولكن طابع ما كتب عنه هنا وهناك عام ، وإن كان ظاهر الإبداع والتحقيق .

وقد تكون دراسة المرحوم الأستاذ (اسماعيل أدهم) أعمق وأوسع ما ظهر عن شاعرنا حتى اليوم . نشرتها مجلة (الإمام) التى كانت تصدرها ندوة الثقافة بالإسكندرية بعنوان (الزهاوى الشاعر) ، عرض فيها لحياته تفصيلا ونشأته وثقافته ، وحلل مقومات شعره وفنونه ، وفصل القول فى فلسفته ليعزز رأيه الذى التزمه – والذى نخالفه عليه – وهو أن الزهاوى فيلسوف قبل أن يكون شاعرا ، وختم دراسته بتحليل موجز لملحمته (ثورة فى الجحيم) . وأحرى بهذه الدراسة الفذة أن تقرأ لأنها من البحوث التى انتظمتها خطة علمية وتهيأ لها تقصٍ شامل .

كل هذا يسلمنا إلى أن الزهاوى – شأن أدبائنا المحدثين – لم يوفّ حقه درسا ، ولم يتهيأ لشعره أن يبعث ، ويجدر بنا أن نلتفت إلى هذين الجانبين لنضع بأيدى أبناء الجيل ما قد يرون فيه صفحة من التطور الأدبى والفكر فى بلدنا .

---

(٢)

آثاره :

١ – الكلم المنظوم	طبع فى بيروت عام ١٩٠٨
٢ – ديوان الزهاوى	« « مصر « ١٩٢٤

٣ – رباعيات الزهاوى	طبع فى بيروت «	١٩٢٣
٤ – اللباب	« « بغداد «	١٩٢٨
٥ – الأوشال	« « « «	١٩٣٤ (ونشر بآخره قصيدته ثورة فى الجحيم) .
٦ – الثمالة	طبع فى بغداد عام	١٩٣٩
٧ – الكائنات	« « القاهرة «	١٨٩٦
٨ – عليا الفلسفة	« « « «	١٨٩٤
٩ – قصة ليلى وسمير	نشرت بمجلة (لغة العرب) ج (١٠) من السنة الخامسة .	
١٠ – حكمت إسلامية درسلرى	محاضرات بالتركية نشرت بالآستانة	
١١ – كتاب الفجر الصادق	طبع فى القاهرة عام	١٩٠٥
١٢ – ترجمة (رباعيات الخيام)	« « بغداد «	١٩٢٨
١٣ – المجمل مما أرى	« « مصر «	١٩٢٤
١٤ – الجاذبية وتعليلها	« « بغداد «	١٩١٠

(٣)

أشهر مصادر دراسته :

١ – الأدب العصرى فى العراق العربى	:	روفائيل بطى ، مصر ١٩٢٣
٢ – سحر الشعر	:	« « ، « ١٩٢٣
٣ – قلب العراق	:	أمين الريحانى، بيروت ١٩٣٥
٤ – الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث	:	أنيس المقدسى، بيروت ١٩٥٢
٥ – آداب العصر فى شعراء الشام والعراق ومصر	:	سعد ميخائيل
٦ – حقيقة الزهاوى	:	مهدى العبيدى

٧ — الآداب العربية فى القرن التاسع عشر: لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ١٩١٠

٨ — العراق فى دورى الاحتلال والانتداب: عبد الرازق الحسنى ، صيدا ١٩٣٥

٩ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر : شوقى ضيف، القاهرة ١٩٥٣

١٠ — Brockelmann ; Geschichte Der Arabichen Litreature

١١ — Orientaliche Literature zeitung XXIX, 1926

١٢ — H.A. R.Gibb; B.S. O. S.(university of London); 1928-1929

١٣ — Dr. widmer ; Iraqische dichter Gamil Sidqi Al-Zahawy Aus-Bagdad

١٤ — Encyclopaedia of Islam

١٥ — مجلة المعلم الجديد : بغداد عام ١٩٣٦

١٦ — مجلة لغة العرب : « « ١٩٢٨

١٧ — مجلة الحاصد : « « ١٩٣٦

١٨ — مجلة الأسبوع : « « ١٩٥٣

١٩ — مجلة البيان : النجف عام ١٩٤٧

٢٠ — مجلة العرفان : صيدا « ١٩١١

٢١ — مجلة المشرق : بيروت « ١٩٣٧

٢٢ — مجلة الرسالة : مصر « ١٩٣٧

٢٣ — مجلة الكاتب المصرى : « « ١٩٤٦

٢٤ — مجلة الهلال : « « ١٩٢٨

٢٥ — مجلة المقتطف : « « أعدادها الأولى

٢٦ — مجلة الأديب : بيروت « ١٩٤٨

٢٧ — مجلة الأمام : مصر « ١٩٣٧

المختار من شعره

لعل له عذراً [١]

أتى غير مختار وفارق مضطرا ... ولم يك لما عاش فى نفسه حرا
وهل شكلوا منه الدماغ برأيه ... فيجلب بعض النفع أو يدفع الضرا
ولو أنه اسطاع الكلام بقبره ... إذاه قال ما أحلى الحمام وما أمرى
حلا عنده الموت الذى قد حماه من ... إذا على عهد الحياة الذى مرا
نعم قدم الدنيا بغير اختياره ... وسافر من غير اختيار إلى الأخرى
أما لك يوم الدين لطفاً بحاله ... فان الذى قد جاءه جاءه قسرا
تمهل قليلا واستمع ما يقوله ... لعل له عذرا لعل له عـــذرا
فأنت الذى بالخير كنت أمرته ... وأنت الذى قدرت أن يعصى الأمرا
ترفق ولا تقذف بنار جهنم ... فتى غير مستطيع على حرها صبرا

° ° °

لقد طال ليل المؤمن القانع الذى ... ثوى فى ظلام القبر ينتظر الفجرا
يؤمل بعد الموت عود حياته ... فقد وعدوه بعد طى له نشرا
أيحيا امرؤ فى القبر ميتا وإنما ... يموت الذى يحيا إذا سكن القبرا
وكل امرىء يدرى شؤون حياته ... وأما الذى بعد الحياة فلا يدرى
وكم غاصب مال اليتامى مبكر لأ ... جل صلاة الصبح يرجو بها الأجرا
سرى فى ظلام الليل يطلب جاره ... ليسرقه شيئا فسبحان من أسرى
يصلى جهارا فى بياض نهاره ... ويسرق مال الناس فى ليله سرا

° ° °

أيلقى (رنان) فى الجحيم و (بخنر) ... وداروين من عن أصلنا كشف السترا
مخلدة أرواحهم وجسومهم ... هناك يقاسون المهانة والحرا
إذا نضجت بالنار فيها جلودهم ... حباهم جلودا قهر بارئهم أخرى

---

(١) الكلم المنظوم — ص ١١٦

ويحظى (عماد الدين) منا بجنة وكان الذى قد جاءه كله نكرا
فقد بز أموالا لسفيان واعتدى على (صادق) واغتال من خبثه (عمرا)
تذكر قبل الموت أفعاله نعم وتاب عماد الدين لو تنفع الذكرى
أليس عماد الدين هذا الذى عدا على الناس بالنيران لو أنصفوا أحرى
يمر على ظهر الصراط وقد حكى حساما على كبش يريد به عبرا
صراط طويل دق كالشعر متنه وتحت الصراط النار قد سعرت سعرا
فيا عابرا فوق الصراط أخاف أن يزجك هذا الكبش فى الهوة الكبرى

* * *

رويدك يا هـذا فإن الذى به تكلمت لا يرضى الديانة والعصرا
ألم تدر أن الناس فى عصرنا الذى نعيش به بالدين قد نوروا الفكرا
تفكر قليلا فى مقال ذكرته فذلك فوق الكفر إن لم يكن كفرا
جهلت اختيار الله فهو معذب لبعض ومعطى البعض من فضله أجرا
ألا فاعتقد ما شئت إنا عصابة نرى عن سماع الكفر فى أذننا وقرا
وأن لنا بالدين فى الناس سؤددا وان لنا بالدين بين الورى فخرا
وما أمة إلا تدين بصانع يقر بذا من للشعوب قد استقرا
رضينا بدين الله ديناً وإنما عبدناه أعصارا ولم نعبد الدهرا

* * *

رأيت فتاة فى الطريق جميلة تسدد مثل السهم لى نظرا شزرا
وقد كشفت عن وجهها من نقابها فخيل لى أنى به ناظر بدرا
على حين كان الناس فى صلواتهم يؤدونها والملتقى خاليا صفرا
أأنت الذى بالزعم تذكر أننا إذا ما ردينا لم نعد مرة أخرى
فتنكر بعد الموت عود حياتنا وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فقلت لها ياهـذه ما أنا الذى جحدت بل العلم الذى جحد الأمرا
فليس لنا فى العلم ما قد يدلنا على أن للإنسان بعد البلى حشرا
فقالت وقد حز الكلام بقلبها صدوعا ألا اقطع ماتريد له ذكرا

فلولم تكن دار يجازى بها الفتى ... تساوى إذاً من يفعل الخير والشرا
فولد ما قالت بعينى أدمعا ... جرت فسقت خدى وجيدى والنحرا

* * *

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا ... بسوء اعتقادى إلى الكفر قد جرّا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة ... حنانك اللهم يا خالق غفرا
فقد تبت عما كنت معتقداً له ... فإن لم تتب ربى على فوا خسرا
شهدت بأن الله ربى واحد ... تنزه عن عيب يشين له قدرا
بستة أيام برى الخلق كله ... وفى سابع الأيام فى عرشه قرا
إذا شاء أمراً قال كن فيكون لا ... يرى أبدا فى خلق ما شاءه عسرا
أزاغنى الشيطان عن منهج الهدى ... وكان يمينى فانحرفت إلى اليسرى
ولم يشجنى شىء كمنظر غادة ... قد اغتال كف الظلم حاميها غدرا
فباتت تصيح الويل شبه حمامة ... تنوح بداجى الليل من كبد حرى
أضاعت نهارا إلفها فتبجست ... تجدد بترداد الهديل له فكرا
وأم أراها الحيف قتل وحيدها ... فظلت من الأحزان كاسفة حسرى
وقامت إلى شلوله متمزع ... تخمش منها الوجه أو تلدم الصدرا
فلفته فى أكفان خز جديدة ... وواراته فى قبر ولازمت القبرا
ولو لم يكن ملحا أجاجا دموعها ... لأنبت من تسكابها القبر واخضرا
مفجعة ليست بغير حمامها ... تلاقى مع العسر الذى مضها يسرا
عجوز أبت أن تسكن الدار إنها ... رأت دارها من بعد واحدها قفرا

* * *

نظرت إلى الشعرى بليل فهاجنى ... تلألؤها حتى نظمت بها شعرا
فكان مضيئا فى معانيه مثلها ... فقلت كذا فليحسن الشعر فى الشعرى
أتيت به سهلا يلذ سماعه ... ولم أقتحم فى نظمه مسلكا وعرا
وكيف ترى لا يعتلى نظم شاعر ... رأى أنجم الجوزاء فى جوه نثرا
كأن الثريا كف خود تزينت ... خواتيمها بالدر ما أحسن الدرا

وفي الجانب الشرقي أبصر نجمة ... ذؤابتها من فضة أشربت تبرا
كما قد تمشت غادة فلكية ... فأبقت بعالي الجو من خلفها أثرا
كأن على وجه السماء الذي صفا ... يدا بمداد النور قد كتبت سطرا
جرت تبتغي شمس النهار كأنها ... تبلغها أمراً فما ألطف المجرى
تطوف حوالى كعبة الشمس دورة ... وترجع أدراجا إلى حيث لا يدري

أنين الأوطان (١)

قد أسمعتك أنينها الأوطان ... بضعيف صوت ملؤه الأشجان
مدت إليك يد الشكاة لأنها ... قد عاث فيها الظلم والعدوان
أدرك بها الضعفاء واستعجل فقد ... عز النصير وقلت الأعوان
إن كنت تنصرها وتحمي حوضها ... عن غاصب فلقد أتى الإبان
أدرك بنصرك أمر قومك إنهم ... ظلموا فريع الشيب والشبان
وجرت دموع الحزن فوق خدود ... هم وتقرحت منهم بها الأجفان
لا بد من أن تستهل دموعه ... من كان تضغط قلبه الأحزان
قد يستدل على الحزين بدمعه ... مثل الكتاب دليله العنوان

* * *

يا غيرة الله ابطشي بعصابة ... ألهاهم الجبروت والطغيان
فلقد أهين العدل في ديوانه ... ولقد أهين العلم والعرفان
ولقد أهينت للمساجد حرمة ... وأهين في محرابها القرآن
جعلوا الحكومة في البلاد ذريعة ... للغدر حتى رجت البلدان
لا شيء يحظى من قلوب سراتهم ... بالحب إلا الأصفر الرنان
قوم جفاة ما لهم من رحمة ... لولان صخر جامد ما لانوا

* * *

---

(١) الكلم المنظوم — ص ١٢٤

سلبوا القبائل ما لها بوسائل — لا يستطيع كخلقها الشيطان
لم يرتضوا من بعد سلب تراثها — إلا بأن تهتك النسوان
حتى إذا وقفت عن استرضائهم — ظنوا بأن وقوفها عصيان
فتواثبوا يتصيدون رجالها — بقوى الرصاص كأنهم غزلان
وتهاربت منها البقية خشية — من أن تنال حياتها النيران
لم تبق فى تلك الديار أمامهم — إلا نساء الحى والولدان
فتفرق العادون بين بيوتها — وأتوا فظائع جمة وأهانوا
يا ويلها بالمال منهم ما نجت — هذا لعمر أبى هو الخسران
ويح المواطن إنها لبست بهم — ثوب الخراب فما بها عمران
محقورة فى عينهم لا أهلها — أهل ولا إنسانها إنسان
تالله يا طمع الولاة عرقتنا — وأكلت ما لا يأكل الغرثان
يا عدل إنك أنت محبوب لنا — حتام هذا الصد والهجران
يا عدل ألق اليأس فى أرواحنا — يا عدل منك المطل والليان
يا عدل منذ صددت عنا ما لنا — يا عدل عنك بحالة سلوان
يا عدل إنا قد تفارقنا كما — تفارق الأرواح والأبدان
يا رب قد شاع الفساد كما ترى — وتهدمت من دينك الأركان
يا رب قد بيعت حقوق ضعافنا — للأقوياء وحيزت الأثمان
يا رب ضاع الصدق بين سراتنا — يا رب عم الزور والبهتان
حتام يختار الشقاق مقامه — فى المسلمين وإنهم إخوان
حتام هذا الحقد بين رجالنا — حتام هذا البغض والخذلان
حتام لا تأتى النفوس صلاحها — حتام لا تتنبه الأذهان
قوم لعمرى فى الجهالة نوّم — والشر فيهم وحده يقظان
كل الأنام تقدموا فى أمرهم — ونصيبنا من بينهم حرمان
أنظر إلى إيران كيف تملصت — من خطة فيها أذى وهوان

جاءت بإصـــلاح يعلى شأنها ۞ لله ما جاءت به إيران
عمدت إلى الشورى فسنت مجلسا ۞ فيه لرأى الأمــة السلطان
رفعت لواء العدل فوق بلادها ۞ حتى استوى المسكين والخاقان

بين دجلة والفرات[1]

بين أحناء دجـــلة والفرات ۞ حي البؤس فوق أرض موات
بعد أن كانت فى القديم جنانا ۞ باسقات الأشجار مشتبكات
ورياضاً أنيقـــة وحياضا ۞ مترعات وأنهراً جاريات
وبساتين فوقها الطير تشدو ۞ بشجي الألحان والنغمات
ورياحين من جميع صنوف الـ ۞ زهر تهدى روائحا عطرات
فترى النـاس يفسلون إليها ۞ رتّعا فى مروجها الخضلات
فتحيي وجوههم نفحـات الـ ۞ طيب محمولة علــى النسمات
موقف للغرام فى كل وجه ۞ جامع للفتيان والفتيات
ولديه ملاعب لظبـــاء ۞ حاليات كثيرة اللفتات
جنة عند جنة عند أخرى ۞ هكذا يمتددن متصلات
تحتوى أنواعاً من الزهر شتى ۞ وتعي أصنافاً من الثمرات
أدخلوها يا أهلها بسـلام ۞ وكلوا ما شئتم من الطيبات

* * *

غادرتها أيدى العداء جحيما ۞ بعد تلك الرياض والجنـات
من رأى الأرض فى العراق مواتا ۞ ذهبت ثمّ نفسه حسرات
إن بين النهرين والأرض تشقى ۞ لجنانا تبـــدلت فلوات
حييت بالعمران دهراً طويلا ۞ ثم ماتت من بعد تلك الحياة
كل كون فإنه لفســـاد ۞ كل جمـــع فإنه لشتات

---

(١) الكلام المنظوم — ص ١٤٥

أين أنهارها التي كن فيها جاريات طلقا على الجنبات
نهر عيسى وبيطر ورفيل ودجيل وطابق والصراة
ما رأينا كمثل دجلة سطراً لو قرأنا صحائف الكائنات
لا ولا كالفرات في الأرض نهرا صالحا للحيوان أو للنبات
دجلة دجـــلة فلم تتغير وكذاك الفرات عين الفرات
ما نضا الماء غير أن رجال الـ ملك ماتوا في الأعصر الخاليات
وانتهت سلطة البلاد لقوم خلقـوا للرشى وللسرقات
خلقوا للفساد والظلم والتخـ ريب والنهب بعد والغارات
خلقوا لو أنا انتبهنا قليلا في ســبيل ارتقائنا عثرات

٭ ٭ ٭

أيام بغداد (١)

أتعود بعد تصرم ونفاد أيام بغداد إلى بغـــداد
أيام بغـــداد التي في مرها كانت عوادي الدهر غير عوادي
إذ ليس بغـداد كما تلفى ولا حكام بغداد ذوي استبداد
كانت محطا للعلوم وأهلها وقرارة للمجـــد والإمجاد
اليوم هاتيك العلوم بأسرها مدفونة بمقابر الأجداد
قد عاش دهراً في نعيم أهلها فاذا النعيم وأهلهـــا انفاد
أيام مد الأمن وارف ظله فيها فكانت جنة المرتاد
أيام بغـداد تضيء جميلة فتلوح مثل الكوكب الوقاد
أيعاد ما قد مر من عمرانها أم ذلك العمران غير معاد
لا ترجع الرغبات نحو عراصها أو ترجع الأرواح للأجساد
فتقوم فيها بالسداد حكومه وتزول عنها دولة الأوغاد

---

(١) الكلم المنظوم ص ١٦٣

جاسوا المنازل مفسدين وأوقدوا   نار الإساءة أيما إيقاد
إنى أظنك لا ترى بمكانها   من بعد بضع سنين غير رماد
فهناك أهل يجهلون حقوقهم   وحكومة تعتو ودهر عاد
هم أيدوا الحكام فى تدميرها   فكأنهم لو يخجلون أعادى
لجأت إليهم حين عز نصيرها   ولقد يجاء إلى ذوى الأحقاد
قضت الفظاظة فى طبائع أهلها   أن لا يكون فؤادهم كفؤادى
قد زال عن بغداد كل حلاوة   لكن كذاك لها قديم ودادى
فلها مع الجنف الذى ألقى بها   ودّ بقلبى نال من أجلادى
بغداد تطلب ذلتى وأعزها   فانظر لبعد البون فى الاضداد
وتريد موتى إذ أريد حياتها   شتان بين مرادها ومرادى

* * *

كأن الشرق ليس له فم[1]

كفى الغرب فخرا أنه متقدم   وأن له مالا به يتنعم
وأن له فى البر جيشا عرمرما   يؤيده فى البحر جيش عرمرم
نعم هو أرقى خطة بشرية   سمت باتباع العلم والعلم سلم
ترقى فلما اشتد ساعده عتا   فبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه واعتسافه   سكوتا كأن الشرق ليس له فم
فيا أيها الغرب المدل بنفسه   رويدك ما هذا الجفاء المذمم
ألم يك هذا الشرق فى الزمن الذى   مضى لك أستاذا كبيرا يعلم
مضى زمن للعلم والشرق زاهر   على عهده والغرب إذ ذاك مظلم
فكانت سماء العلم فى الشرق تحتوى   على أنجم والغرب ما فيه أنجم
وكان ظلام الجهل فى الغرب عابسا   وكان ضياء العلم فى الشرق يبسم

(١) الكلم المنظوم — ص ١٧٥ .

فما كان يطغيه هناك رقيه ... ولا يزدهيه أنه متقدم

* * *

فيا غرب لاتجرح من الشرق قلبه ... بإيراد دعوى أنك اليوم أعلم
رويدك لا تغتر بالدهر كل ذا ... فليس بباق فيه بؤسى وأنعم
بماذا ترى أن ارتقاءك عهده ... يدوم وأن الشرق لا يتقدم
أتزعم أن الشرق يلبث صاغرا ... أمامك مغصوبا وأنت المكرم
وتبقى عليه هكذا متسيطرا ... تمص دم الأموال منه وتهضم
ألا اصبر عليه نصف قرن فإنه ... سيرقى به لو أنه منك يسلم
سينهض من بعد الخمول إلى العلى ... ويرجع مجدا دارسا ويتمم
نعم فسدت فى الشرق بعض عروقه ... ولكن جسم الشرق مافسد الدم

* * *

سترقى بلاد الشرق بعد هبوطها ... لو أن بنيها استيقظوا فتعلموا
يزول تماماً ما بها من تأخر ... لو أن حكومات البلاد تنظم
هنا لك يحيا المجد من بعد موته ... هنا لك يبنى العلم ما الجهل يهدم
فتمنحها من طيب نفس مجالسا ... نيابية فيها العدالة تحكم
وأن هى لا تعطى الرعايا حقوقها ... فإن الرعايا للحكومات ترغم
فتأخذ منها ما تريد بقوة ... إذا اتحدت فهى الصواعق تحطم
وأما بقاء العلم عندك آلة ... بها أنت تأتى ما تشاء فمبهم
لقد طال صبر الشرق ياغرب فازدجر ... فإنك أن لم تزدجر سوف تندم
تهكمت بالشرق احتقارا لأهله ... فيا غرب ما أن يفلح المتهكم
قصصت جناحيه وحملت ظهره ... عناً وهو لايشكو ولا يتبرم
فآلمت قلب الشرق والشرق صابر ... ولكن لحين يصبر المتألم

* * *

ضمن المجرة (١)

كم ضمن هاتيك السحائب وسط المجرة من كواكب
ليست كزعم بعضهم نهرا يفيض على الجوانب
كلا ولا هي لو تعي زبد بوجه السيل ذائب
كلا ولا واد على طرفيه قد صفت كتائب
حيث الأسنة في خلال النقع تضحك والقواضب
أهناك جيش لا أبالك حذوه جيش محارب
كلا ولا سدم حوت غازا فهذا الظن كاذب
لكن شموس جاريات ضمن هاتيك السحائب
بل ليس هاتيك السحائب غير أنجمها الثواقب
ألكل يذهب في الفضاء على اختلاف في المذاهب
العلم هذا رأيه فيها ورأى العلم صائب
يرضى به من كان ذا نظر بعين العقل ثاقب
لكن من جهل الحقا ئق من سماعته مغاضب
ومن المصائب أن تخاطب جاهلا ومن المصائب
أيجوز أن الأرض تسكن وحدها بين الكواكب
وتكون غير الأرض خالية كأمثال الخرائب
هذا لعمري إن يصحّ فإنه لمن العجائب
إن الحياة تبين حيث ترى لها وسطاً يناسب
ما أوحش الأجرام لا تمشي بها بيض كواعب

---

(١) ديوان الزهاوي — ص ٢٢

أرسلت طرفى (١)

أرسلت طرفى فى الفضاء فلم يقف ... فعلمت أن البعد فيه سحيق
ياطرف أرجو فى سراك إلى العلى ... أن لا يعوقك عنده العيوق
بين النجوم به وأنفسنا التى ... تنوى الرحيل من الأثير طريق
الليـــل داج والطريق مخوفة ... فضللت لولا الله والتـــوفيق

° ° °

الأقوياء بكل أرض قد قضوا ... أن لا تراعى للضعيف حقـوق
إن الشعوب لتستحق تساويا ... لولا اختـــلاف بينها وفروق
إنى أخاف من انفجار هائل ... فعلى النهى يتكاثر التضييق

° ° °

لو كان هذا الكون فيه وازع ... ما كان يتسع الجدا ويضيق
يودى الفتى من حيث يسلم غيره ... ما للســـلامة منهج مطروق
الكون بحر من لهيب لاهب ... والناس فيه ســابح وغريق
فى كل حىّ شـعلة من ناره ... فكأنما هذى الحيـــاة حريق

شهقات (٢)

(١)

ما إن يريد حيـــاةً ... فى الذل إلا الجبان
نخشى المنون وشر ... من المنون الهوان
لنـــا نريد أمانا ... منه وفيه الأمان

---

(١) ديوان الزهاوى — ص ٣٣
(٢) ديوان الزهاوى — ص ٤٦

الأرض ليست بدار فيها الحقوق تصان
بين الذين عليها يحيون حرب عوان
لا تلحنى إن تأخرت يوم جد الرهان
فقد أردت لحاقا وما أراد الزمان

(٢)

إن السماء لتبغى فى كل يوم شهيدا
والأرض تعلن للناظرين قبرا جديدا
لا يوم إلا وفيه الإنسان يبكى فقيدا
مات الوحيد لأم فالأم تبكى الوحيدا
لقد شجانى صبى يلوى من اليتم جيدا
كم قد طلبت سعيداً فما وجدت سعيداً
ان نيل بالعسف عيش فلا يكون رغيدا

(٣)

قد أطبق الموت عينين من فتاة رداح
هوت بها وهى بكر يد بغير جناح
ماتت فنامت بقبر اعد غير فساح
ما للمقيم به بعد أن ثوى من براح
يأتى على المرء فيه ليل لغير صباح
فزاره صاحب كا ن نضو حب صراح
يهدى إلى القبر زهرا من نرجس واقاحى

(٤)

غنت حمامة أيك غنى لنا يا حمامة
وبعد ذلك طيرى خفيفة بالسلامة

ألبرق يضحك في جوه وتبكي الغمامة
أكلما قلت شعرا قامت عليّ القيامة
ندمت من كل ما قلته أثير الشهامة
نعم ندمت ولكن ماذا تفيد الندامة
إذا هجرت بلادي فما علي ملامة

(٥)

لا شيء يبقى على ما شهدته مستمرا
فالبحر يطغى لمد والمد يعقب جزرا
كم غير الأرض من حادث على الأرض مرا
فصيَّر البر بحرا وصير البحر برا
الأرض تضمر نارا والنار تضمر شرا
فقد تشق أديما لها وتحدث أمرا
وتجعل الظهر بطنا وتجعل البطن ظهرا

(٦)

للكون فيما بدا لي ظواهر وخفايا
ما قام فينا حكيم يحل بعض القضايا
إن المدينة حي والناس فيها خلايا
ما بالذكاء يسود الإنسان بل بالسجايا
والمرء يعرف منه الضمير عند الرزايا
ما زال في البعض من أميال الوحوش بقايا
أطماعه ليس تمضي حتى تجيء المنايا

(٧)

إذا أهين لبيب بالسب قال سلاما
وإن أفاد سكوت كان السكوت كلاما

يود من سيم خسفا لو استطاع انتقاما
قد بلل الدمع عند المساء خبز اليتامى
أشكو إلى الله عيشا مرا وداء عقـاما
ليس النواميس فى عـالم الوجـود لزاما
فقد وجـدت نظاما وما وجـدت نظاما

(٨)

ما للفضيـلة تأتى بهـا الفتاة رواج
اليوم للناس فى خطبة الـثراء لجاج
تزوجت فأتاهـا بمـا يسوء الزواج
بكت فلا تمنعوها ان البكاء احتياج
بنى العروسان بيتا له الشقاء سياج
لا ترج فيها امتزاجا فما هناك امتزاج
إذا تناكر زوجان فالفراق علاج

(٩)

لقد صمت وصمتى ما كان منى عيا
أتحسب الغى رشدا وتحسب الرشد غيا
تريد جاها ومالا دثرا وعيشا رضيا
وبسطة ومكانا من الحياة عليا
هيهات ما أنت إلا ميت وان كنت حيا
يا شيخ هيا لنسعى معا إلى القبر هيا
فقد بلغنا كلانا من الحياة عتيا

الشعر مرآة [١]

إنى امرؤ لا أجهر ألا بما أنا أشعر
لا أطمئن لغير ما أنا سامع أو مبصر
أنكرت ما حمد الورى وحمدت ما قد أنكروا
أرتاب فى نبأبه يفضى إلى المخبر
بل لا أصدق منه شيئا قبلما أتبصر
أما الخرافة فهى ما عنه أفر وأنفر

* * *

لا أقتفى أثر الغوانى غير أنى أنظر
عاشرننى فرأين كيف يعف منى المئزر
لا أكبر الأشياء ليست فى العواقب تثمر
العقل من إكباره تلك السخائف أكبر
قد آلمونى بالقذيفة والشتوم وأكثروا
وتعصبوا حتى رمونى بالمروق وكفروا
إن نابنى شر فإ نى منه لا أتذمر
أو جاءنى خير فلا أعتز منه وأبطر
أرد النمير وبعد ما أروى غليلى أصدر

* * *

ولقد قنعت من الطعام ببلغة تتيسر
لا كالذين على طعام واحد لم يصبروا
أو كالذين إذا تغيرت الظروف تغيروا
أو كالذين إذا تجهرت الرعاع تجمهروا

---

(١) ديوان الزهاوى — ص٦٢ .

أو كالذين تذللوا أو كالذين تكبروا
أو كالمنافق جاء يظـهر غير ما هو يضمر

٭٭٭

والشعر لست أقوله إلا كما أنا أشعر
ما أن أقلد من مضت قبلى عليه الأعصر
والشعر قائله بتقليـد الطبيعة أجدر
إن الطبيعة مورد للشاربين ومصـدر
يجد المواضيع الكـبيرة عندها المتفكر
والشعر ليس سوى الذى هو للشـعور مصور
والشعر بالمعنى المطابق للحقيقة يكبر
ولقد يثير عواطفاً من سامعيه ويسحر
والشعر مرآة بها صور الطبيعة تظهر
ليس القريض بطولة بل قد يفوق الأقصر
ولقد يطيل قصيده فيجيد أشعث أغبر
وإذا البراعة ووزنت يتقدم المتـــأخر

٭٭٭

أحسن بشعر عن شعور النفس جاء يعبر
يرعاه شعب يستقـلّ وأمة تتحرر
ما للأديب بقطره فى الشرق قدر يذكر
أما الشقاء فحظه منه الأتم الأوفر
ولقد يصادف عزة من بعد ما هو يقبر
من بعد ما فى قبره أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم يرجو ميت لا يشعر

٭٭٭

الروح والجسم (١)

قد فارق الجسم يسمو بعدما هبطا ... روح به كان قبل الموت مرتبطا
لقد علا الروح بعد الجسم مرتقيا ... وقد هوى الجسم بعد الروح منهبطا
قد كان يضبطه إبان قوته ... حتى إذا دب فيه الوهن ما ضبطا
احبس دموعك أو ارسل بوادرها ... فليس يرجع شيء بعد ما فرطا
يا راكبا باطل الآمال عن شطط ... إني أعيذك من أن تركب الشططا

° ° °

ماذا الذي أحفظ العمال فاعتصبوا ... إني لأسمع عن بعد لهم لغطا
قد اهتدى من له علم بغايته ... أما الذي هو ذو جهل فقد خبطا
ود الذي جهل الأشيا لو وصلت ... منه اليدان النجوم الزهر فالتقطا
قد أفرط القوم إفراطا أضر بهم ... وقبل ذلك كانوا أمة وسطا
ورب ناس رأوا في الوقت متسعاً ... وفي المكان الذي هم فيه منبسطا
ثاروا على العلم باسم الدين واحتقروا ... من ليس في زمرة الثوار منخرطا
ولا أعاتب مضطرا له ربطوا ... كما أعاتب حرا نفسه ربطا

° ° °

ما كنت يوماً ببغداد أخا دعة ... ولا بعيشي في بغداد مغتبطا
كالعندليب شدا للناس في قفص ... بحيث يحيا بحبات لها التقطا
ما زلت في كل يوم ذر شارقه ... مكررا عملا لي طالما حبطا
إن القنوط من الأعمال مهلكة ... ويل لمن هو من أعماله قنطا

° ° °

تغيرت فوق وجه الأرض أنظمة ... حتى التوى الأمر بين الناس واختلطا
ألقى الحياة بهم تجري بلا خطط ... قوم لها وضعوا من نفسهم خططا
بين الشعوب كفاح ثار ثائره ... وليس خوف على الشعب الذي نشطا

---

(١) ديوان الزهاوي — ص ٦٤

وليس بين الفتى يوماً وحاجته إن كان ذا همة قعساء غير خطى
رأى القوى ضعافا فهو يغمطهم ولو رأى الأقوياء الغلب ما غمطا
ما شمر الليل عن سافيه منهزما حتى رأى الصبح مثل السيف مخترطا
لقد وجدت حياة الذل فاشية والناس منقبضاً منها ومنبسطا
وللمعيشة أنماط قد اختلفت وكل قطر يراعى أهله نمطا

أنين المفارق (١)

نبا الدهر بالاخوان حتى تمزعوا وحتى خلت منهم ديار وأربع
ونابهم خطب فشتت شملهم وكان بهم شمل المكارم يجمع
أحن إلى عهد اللوى وهو منقض وأبكى لنأى الدار والدار بلقع

ويممت دار الملك أحسب أننى إذا كنت فيها نازلا أتمتع
وانى إذا ما قلت قولا يفيد فى مصالحها ألفيت من هو يسمع
ولم أدر أنى راحل لمحلة بها الفضل مجذوم الذراعين أقطع
الى منزل فيه العزيز محتقر إلى بلد فيه النجيب مضيع
ولم يتقدم فيه إلا من ارتدى رداء به أهل الشنار تلفعوا
هنالك ناس خالفوا سنن الهدى فمدت لهم فى البغى بوع وأذرع
أتوا بشناعات فعيبوا فحاولوا عدولا فجاءوا بالذى هو أشنع
تباهوا بما حازوه من رتب سموا بها ووسامات على الصدر تلمع
إذا لم يكن صنع الفتى زينة له فليس يحليه الوسام المرصع
ولا الرتب المعطاة ترفع شأنه إذا لم يكن فى فعله ما يرفع

ولما رأيت الغدر فى القوم شيمة وأن مجال الظلم فيهم موسع
وأن الكلام الحق ينبذ جانباً وأن أراجيف الوشاية تسمع

---

(١) ديوان الزهاوى — ص ٨٠

خشيت على نفسي فأزمعت رجعة   إلى بلدى من قبل أنى أصرع

(الموت لا يسأم)[1]

فريقان بينهما قد صفا   الوفاق زمانا كما أعلم
فماذا الذى جرّ بينهما   منازعة نارها تضرم
وشمرت الحرب عن ساقها   وراحت لأرواحهم تلهم
وثارى الكمى على قرنه   وأزبد للغيظ منه الفم
وذلك يسقط من رمية   وهذا يجندله المخذم
وصوت المدافع بين الصفوف   كالرعد فى قصفه يهزم
تثير دخانا من الجانبين   وجه السماء به أقتم
تسابق للناس فى المأزق   القنابل والأجل المبرم
وتقتحم الحرب أبطالها   فتسأم والموت لا يسأم
بهم أم قشعم احدودقت   فلا الأم كانت ولا قشعم
فيالك من حومة للوغى   يسيل على جانبيها الدم
لقد حدت عنها إلى جانب   فإن الحياد هو الأسلم
دعانى لنصرته منهما   فريق هو الطرف الأظلم
فقلت لهم أن هذا الخصا   م لى أن ولجت به مؤلم
دعونى يا قوم فى عزلتى   فما أنا منكم ولا منهم

المستنصرية[2]

وقفت على المستنصرية باكياً   ربوعاً بها للعلم أمست خواليا

---

(١) ديوان الزهاوى ــ ص ١٠٧
(٢) ديوان الزهاوى ــ ص١٢٧

وقفت بها أبكى قديم حياتها ... وأبكى بها الحسنى وأبكى المعاليا
وقفت بها أبكى بشعرى بناتها ... وأنعى سجاياهم وأنعى المساعيا
أكفكف بالأيدى بوادر أدمعى ... ويأبين الا أن يفضن جواريا
بكيت بها عهداً مضى فى عراصها ... كريماً فليت العهد لم يك ماضياً
بكيت بها المدفون فى حجراتها ... من العلم حتى بل دمعى ردائيا
وطأطأت منى الرأس فيها تواضعا ... وحييت بالتسليم منها المغانيا
وسرحت أنظارى بها فوجدتها ... بناء لتشييد المعارف عالياً
بناء جساماً عز للعلم مثله ... فقلت كذا فليبن من كان بانياً
وألفيت قسما قد تداعى جداره ... وقسما على ما كان من قبل باقياً
تهب رياح الصيف فى حجراتها ... فتلبسها ثوباً من النقع هابياً
وتسعى على الجدران منها عناكب ... تجد لها فيما تداعى مبانيا
فألممت فيها بالرسوم دوارساً ... وساءلت منهن الطلول بواليا
وقلت لدار البحث عظمت محفلا ... وقلت لنادى الدرس حييت نادياً
أجامعة العلم التى كان روضها ... نضيراً كما شاء التقدم نامياً
بأية ريح فيك هبت زعازع ... تصوّح ذاك الروض فاجتث ذاوياً
لقد كنت فيما قد مضى دار حكمة ... بها يعلم الناس الحقائق ماهيا
فكنت بأفق الشرق شمساً مضيئة ... تشعين نوراً للمعارف زاهياً
وكانت بلاد الغرب إذ ذاك فى عمى ... تقاسى من الجهل الكثيف الدياجيا
فأين رجال فيك كانوا مشائخاً ... اليهم يحث الطالبون النواجيا
وكانوا بحاراً للعلوم عميقة ... وكانوا جبالا للحلوم رواسيا
وكانوا مصابيح الهدى ونجومها ... بهم يهتدى من كان فى الليل سارياً
يميتون فى نشر العلوم نهارهم ... ويحيون فى حل العويص اللياليا
نواحيك من طلابها اليوم أقفرت ... وكانوا ألوفاً يملأون النواحيا
فقالت وقاك الله لا تسألننى ... فمالك نفع فى السؤال ولا ليا
فقلت أجيبينى كما كنت سابقاً ... تجيبين من قد جاء للعلم راجياً

فقالت ألمت حادثات عظيمة وجرت على هذه البلاد دواهيا
هناك استبد الدهر بالناس مبدلا فرفع مخفوضاً وسفل عالياً
هناك أضمحلت دولة عربية بها كانت الأيام ترفع شأنيا
وعوض عنها دولة ثم دولة تسر بكون الجهل فى الناس فاشياً
وذاك لأن العلم للمرء مرشد يعلمه عن حقه أن يحاميا
عرت نكبات الدهر بغداد بعدما بها ردحاً ألقى السلام المراسيا
فاذهب ما للعلم من رونق الصبا تتابع أحداث يشبن النواصيا
وأدنى الذى قد نابها من نوائب خرابى ولولاها لما كان دانياً
فكابدت منهن الصروف نوازلا وقاسيت منهن الخطوب عواديا
وأبدى على عزى القديم إهانتى رجال لشخص العلم كانوا أعاديا
وأهملت حتى أنهد منى كما ترى مبان لنشر العلم عزت مبانيا
وصرت على حكم الذين تخوفوا من العلم يا هذا إلى ما ترانيا
فقد ذوى الغصن الذى كان ناضراً وقد عطل الجيد الذى كان حالياً
وكنت أرجى أن تعود عمارتى إذا بعث الرحمن للعلم راعياً

° ° °

لقد نقض الأيام بالعجم مروتى ومر الليالى يتبعن اللياليا
ورنق عدوان الزمان معيشتى فمن لى أن ألقى الزمان مصافياً
فقد صيروا للفحم بعضى مخزناً وبعضى حوانيتاً وبعض ملاهياً
ولاقيت منهم كل خسف وجفوة فماذا عسى من بعد ذا أن ألاقيا
أبيت بلا ضوء ينير دجنتى ويدفع عنى وحشتى وظلاميا
وأصدى فلا أسقى من الماء شربة ودجلة تجرى بالنمير أماميا
فياليتنى كنت أندرست بأجمعى ولا كان ذلى هكذا اليوم بادياً
كما قد عرى أختى النظامية الردى ولم يبق من آثارها الدهر باقياً
وكل جديد سوف يرجع للبلى إذا لم يكن منه له الله واقياً

الشمس في الطلوع (١)

طلعت في جلالة ووقار		من وراء التلاع شمس النهار
طلعت من حجابها كإله الحسـ		ـن في موكب من الأنوار
وتجلت مثل العروس بوجه		نوره باهر أولى الأبصار
فكست منكب الربى حواليها		رداء مطرزاً بالنضار
وأدرت على الرياض شعاعاً		لج في لثم مبسم الأزهار
كلما مس ظاهر الأرض أعطى		رونقاً للتراب والأحجار
ما تدانى الا أذاع نشاطاً		لحياة الحيوان والأشجار
وله في جداول الروض رقص		فوق سطح الماء الزلال الجاري
وأضاء الهواء فهو كبحر		ماج في لج نوره الموار
ان للشمس منظرا ليس يلقى		مثله في النجوم والأقمار
منظرا راق حسنه غير أني		كل يوم أراه بالتكرار

ليلة عاصفة (٢)

يصف بها ليلة تكاثفت فيها السحب وثارت الزوابع فتتابع برقها وقصف رعدها وغزر مطرها حتى عظم السيل وخيف الغرق . .

يا أرض ماءك ابلعي		ويا سماء أقلعي
ويا قوارع اهدئي		ويا زوابع اهجعي
ويا بروق امسكي		ويا غيوم اقشعي
قد بلغ السيل الزبى		ولم يدع من موضع
بمثل هذا السيل في		أعمارنا لم نسمع
كم غمرت مياهه		من مربع فمربع

---

(١) ديوان الزهاوي — ص ١٢٩
(٢) « « — ص ١٣٣

يهطل ماء من سحا ... ب بالبخار مشبع
كأنه بحر هوى ... من المحل الأرفع
حيث الظلام دامس ... يفزع قلب الأروع
لقد مددت إصبعى ... فلم أشاهد إصبعى
يا لك من ليل بهيم ... للرجال مفزع
حتى إذا البرق بدا ... عرفت منه موقعى
إذ سقطت صاعقة ... فى بيت جارى الأشفع
فكان من دويها ... ينشق طبل مسمعى
وظلّ لبى ذاهلا ... كأنه ليس معى
أرى سيوفا أرهفت ... من البروق اللمع
ابيض منها الليل من ... بعد سواد أسفع
كأنها أنياب غو ... ل للورى مبتلع
وظل يرغو الرعد بعد البرق فوق الأربع
كأنما يثور فى السماء الف مدفع
أردت أن أكلم البعض فلم أستطع
زوبعة شديدة تأتى وراء زوبع
تخال أن البيت طائر بريح زعزع
وأنه منقلع وليس بالمنقلع
تلم فى هبوبها ... من الجهات الأربع
من هولها لم يبق فى ... الحياة لى من مطمع
يكاد يخطف العيو ... ن البرق بالتلمع
الأرض من سخط السماء بالغت فى الجزع
يا لنفوس غاب عنها الرشد فهى لا تعى

يا لقلوب خفقت بالخوف بين الأضلع
وللنســـاء معولات من عظيم الهلــع

النـــائحة (١)

وهى قصيدة يرثى بها من شنقهم جمال باشا فى سوريا من أفاضل العرب:

على الأعواد

على كل عود صاحب وخليل وفى كل بيت رنة وعويل
وفى كل عين عبرة مهراقة وفى كل قلب حسرة وغليل
علاها وما غير الفتوة سلم ، شباب تسامى للعلى وكهول ،
كأن وجوه القوم فوق جذوعهم نجوم سماء فى الصباح أفول
كأن الجذوع القائمات منابر علت خطباء عودهن تقول
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم إلى الموت من وادى الحياة رحيل
أجالوا بهاتيك المشانق نظرة يلوح عليها اليأس حين تجول
وبالناس إذ حفوا بهم يخفرونهم وقوفا وفى أيدى الوقوف نصول
يرومون أن يلقوا عدولا فينطقوا وهيهات ما فى الحاضرين عدول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحد وقالوا وجيزا ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر ومستعجل كيلا يقال كسول
ولله ما كانوا يحسون من أذى إذ الأرض تنأى تحتهم وتزول
وإذ قربوا منها وإذ صعدوا بها وإذ مس هاتيك الرقاب حبول
وما هى الا رجفة تعترى الفتى مفاجأة والرأس منه يميل
مشوا فى سبيل الحق يحدوهم الردى وللحق بين الصالحين سبيل
ستبكى على تلك الوجوه منازل وتبكى ربوع للعلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شقوة وفى جسد العلياء منه نحول

---

(١) ديوان الزهاوى — ص ١٦٨

قبور القتلى

سرت روحهم تطوى السماء لربها … وما غير ضوء الفرقدين دليل
ولله عيدان من الليل أثمرت … رجالا عليهم هيبة وقبول
ويا لك من رزء حمدت له البكا … وقبحت فيه الصبر وهو جميل
قبور كأن القوم إذ رقدوا بها … عباديد سفر بالتلاع نزول
هوت أمهم ماذا بهم يوم صلبوا … على غير ذنب كى يقال ذحول
سوى أنهم قد طالبوا لبلادهم … بأمر إليهم نخره سيؤول
ونادوا باصلاح يكون إلى العلى … وللنجح والعمران فيه وصول
فما رد عنهم بالشفاعة عصبة … ولا ذبَّ عنهم بالسلاح قبيل
ولا نفع السيف الصقيل حديده … مضاء ولا الرمح الطويل عسول
لعمرك ليس الأمر ذنبا أصابه … قصاص ولكن يعرب ومغول

⋆ ⋆ ⋆

أنا خوا المطايا حين أدرك ليلها … بمأسدة فيها الحمـــاة قليل
وانى على مابى من الحر والصدى … لأنظـر ماء ما إليه سبيل
أفكر فى الماضى فيأتى خيـاله … جميلا أمام العين ثم يزول

البـكاء على القتلى

وإن بـكائى اليوم لو نفع البـكا … عليهم وفى مستقبلى سيطول
أبعد بنى قومى أنهنه عبرتى … وأمنعها ، انى إذاً البخيـــل

⋆ ⋆ ⋆

أقبرة الحقل أغنمى الوقت واصفرى … فما بعد أيام تمر حقول
يبرّحنى أن الصروح تقوضت … ويحزننى أن القصور طلول

⋆ ⋆ ⋆

فليت الذين استحسنوا الأمر فكروا
فكان عن الرأى السخيف عدول

* * *

قد اسود ليل الظلم حتى كأنه ستار على الأرض الفضاء سديل
ويالك من ليل يروع كأنما بكل مكان منه يرقب غول
وقد قرّ حتى قلت قد جمد الدجى وخانت بياض الصبح ليس يسيل
وعسعس يرتاع الكرى من ظلامه وطال وليل الخائفين يطول
اذ الوطن المأسور ينهض قائماً فتقعد أغلال به وكبول

* * *

مضى ماضى لا عاد واليوم فاستمع إلى لهجة التاريخ كيف يقول
ستكتب فيه بالدماء حوادث وتقرأ للويلات فيه فصول
ويذهب هذا الجيل نضو شقائه ويأتى سعيداً بالسلامة جيل

لا تلومينى (١)

إليك يا نفس عنى لا تلومينى إن الملام على ماجئت يؤذينى
يا نفس لومك هذا مكثر شجنى أليس ما بى من الأشجان يكفينى
يانفس انى على ما قد تعاورنى من المصائب مفجوع فسلينى
نشرت للقوم آراء أريد بها إصلاح دنياهم لا الطعن فى الدين
فإن أصبت فهذا نافع حسن أو كنت أخطأت فيها فليردونى
ما إن أردت بها إلا إقالتهم فهل يليق بقومى أن يهينونى
ردوا بسبى ما يعزى إلى قلمى كأنما السبب من بعض البراهين

* * *

(١) ديوان الزهاوى — ص ١٨٨

ألستم يا بنى بغداد فاذكروا أبناء قوم خلوا شم العرانين
أبناء قوم بنوا للعلم أندية كأنهن مقاصير الخواقين
وأكرموا العلماء المصلحين لما أبدوه بالصدق من رأى وتلقين
ما بالكم قد سلكتم غير منهجهم مبدلين قساوات من اللين
المال للعلم مدن فاشتروه به ليس الذى يشترى علماً بمغبون
خذوه مهما تناءى عن مواطنكم من كل مملكة حتى من الصين

° ° °

كأنهم من شعاع الشمس قد جبلوا وأكثر الناس مجبولون من طين
ماتوا وفى الأرض ذات العرض قد دفنوا
إلا اسمهم فهو فيها غير مدفون
راجحت أعلامهم فى كل ماوضعوا من العلوم فما خفت موازينى

° ° °

ألم أكن قبلما الدستور ينشلكم أذبّ عن حقكم حيف السلاطين
ألم أحارب لكم عبد الحميد وقد عتا فألبسكم ثوباً من الهون
له من الإنس شيطان يضللكم وكان شيطانه شر الشياطين
ألم أحام بشعرى عن حقائقكم فصانه أهل مصر فى الدواوين
نعم بقيت بشعرى فى البلاد لكم مجداً يدوم جزاء غير ممنون

° ° °

ان الأكف التى قد كنت آملها للذود صارت مع الأيام ترمينى
أمست رماح بنى عمى وقد غضبوا تنوش جسمى، وكانت شرعاً دونى
بقيت والحق مهجورين فى نكد أبيت فى الدار ، أبكيه ويبكينى
للجهل حق ، رعاة الجهل تضمنه له وللعلم حق غير مضمون

° ° °

بالله يا أرض أوطانى أبلعى جسدى ويا سماء بلادى لا تظلينى

أرجو من الشمس أن تزوى أشعتها عنى فانى أراها اليوم تؤذينى
ومن نسيم الصبا أن لا يصافحنى ومن أريج الحمى أن لا يحيينى
كأن دجلة إذ بارحت ضفتها ضاقت على رحبها فى عين محزون
يضيق صدرى فامشى فى الفضاء خطى
أروّح النفس من حين إلى حين
قد كان بالشعر لى فى الهم تسلية واليوم أصبح شعرى لا يسلينى

المكاتب(١)

أنشدها فى حفلة أقيمت فى سينما رويال من قبل السيدة فورس لتأسيس مكتبة عامة .

تجلو المكاتب كالكواكب ما للجهالة من غياهب
كل الهداية والسنى عند الكواكب والمكاتب
تفشو الأشعة منهما ملء المشارق والمغارب
أن المكاتب عند قوم مرتقٍ لمن المآرب
هن المناهل للرجال على اختلاف فى المشارب
وهل البلاد إذا خلت منهن إلا كالخرائب
ما كان توجبه الحضا رة فهو من أسنى المواجب
ياقوم إعداد المكاتب فوق إعداد الكتائب
هذى مغذية النفوس وتلك مجلبة المعاطب

* * *

إن الكتاب هو المعلم والمسلى والمصاحب
أوراقه فى عين عشاق الهدى بيض كواعب

(١) ديوان الزهاوى — ص ٢٢٤

لا ترتقى بغداد إلا ان تكاثرت المكاتب
وإذا خلت منها فان خلوها إحدى المصائب
أكبر بحاجتها إلى إنشاء مكتبة تناسب

* * *

العلم نور بين أيدى المرء فى كل المطالب
والجهل أشبه بالظلام يحفه من كل جانب
العلم للحسنات يمطر مثل هاطلة السحائب
العلم يعفى المرء فى الأعمال من ثقل المتاعب
فى العلم تخفيف لما يعرو الحياة من النوائب
فى العلم توسيع لأبواب التجارة والمكاسب
فى العلم إصلاح المفاسد والعقائد والمذاهب
ليس الحياة سوى وغى والناس مغلوب وغالب
والعلم فى هذا الجهاد هو السلاح لمن يحارب
بالعلم طار المرء حتى مر من بين السحائب
بالعلم قد تم اتصال للمشارق بالمغارب
بالعلم صار يكلم الإنسان آخر وهو عازب
بالعلم أضحى الناس يطوون البحار مع السباسب
العلم فى الدنيا أب زاك وأم للعجائب
أنا لا أوفى ذكر ما للعلم من غرر المناقب

* * *

الناس عندهم الشموس وعندنا نور الحباحب
هاتوا لنا الأعمال إن القول يخلب أو يؤارب
حتام تغتر العروبة بالأمانى الكواذب
ان أبطأت شمس الرقىّ فان فجر الشعب كاذب

يا قوم مرتبة العلوم تفوق باقية المراتب
يا قوم إن العلم بالإجماع محمود العواقب
يا قوم إن العلم يحصل بالتعلم والتجارب
يا قوم إن الجهل فى ذا العصر من إحدى المعايب
يا قوم إن العلم ثم العلم ثم العلم واجب

حول العلم (١)

العلم ثروة أمة ويسار والجهل حرمان لها وبوار
العلم قد دك الجبال فهدها وأضاء جنح الليل فهو نهار
بالعلم أطلعت البلاد كواكبا بالعلم صارت تنطق الأحجار
بالعلم قد ناجى مقيم نازحاً وعلى الأثير تمشت الأخبار
بالعلم أدنى الناس شقة أرضهم بالعلم غاصوا فى البحار وطاروا
بالعلم قد طالت فأدركت المنى أيد عن الغرض الرفيع قصار
خدم البلاد الكهرباء وقبله خدم المعامل فى البلاد بخار
العلم ينمو فى المدارس دوحه حينا وتقطف بعد ذاك ثمار
يا علم يا كل الهداية للورى صلى عليك الله والأبرار
يا علم أنت مخفف أوزارنا لولاك أنقض ظهرنا الأوزار
ما كان يفلح فى جهاد حياته شعب على كسل له استمرار
سيموت رب العلم من مرض به وتعيش دهرا بعده الآثار
شتان بين الدار تبسط ظلمة والدار فيها تسطع الأنوار

* * *

بالعلم قد لبس العراق حضارة ما إن تردت مثلها الأمصار
يا علم قل لى مخبرا أين اختفت تلك النجوم الزهر والأقمار

---

(١) ديوان الزهاوى — ص ٢٢٩

يا علم قد كانت ربوعك جنة — غناء تجرى تحتها الأنهار
من بعد ما كانت ربوعك جنة — يا علم عمّ ربوعك الاقفار
يا علم غيّرك الزمان بصرفه — لا أنت أنت ولا الديار ديار
إن التوقف فى زمان حازم — فيه تقدمت الشعوب لعار
لا نجح إلا والمشقة أمه — كالنور يظهر حيث تذكو النار
نور يشق حسامه بغراره — سجف الظلام وهكذا الأسحار
وأهم عضو فى الرجال لسانه — وأهم جزء فى السيوف غرار
الحرب بعد اليوم حرب سياسة — والغالبون بها هم الأحرار
العدل فيها للمحارب جنة — والعلم فيها المرهف البتار
من كان يمشى فى طريق مستو — أمن العثار فما هناك عثار

* * *

لا توقظنى إن هجعت من الكرى — حتى يغرد فى الصباح هزار
حاولت أن ألقى الحقيقة جهرة — فاذا الحقيقة دونها أستار
لو كان للإنسان رأى صائب — لأتت مؤيدة له الأقدار
يا قوم قد وعر الطريق أمامكم — فاذا عزمتم تسهل الأوعار
لا يرفع الوطن العزيز سوى أمرىء — حر على الوطن العزيز يغار
إن هدّم العربى حوض جدوده — سخطت عليه يعرب ونزار

ما أغنى (١)

من قصيدة قالها فى دمشق ، وأنشدها فى بهو المجمع العلمى

ظننت بأن الشعر يغنى فما أغنى — وكم شاعر فى موقف أخطأ الظنا
لقد كان شعرى يحسن اللحن إن شدا — فما بال شعرى اليوم لا يحسن اللحنا

---

(١) ديوان الزهاوى — ص ٢٥٩

وكنت لاسفار الحياة اتخذته رفيقا أصافيه المودة أوخدنا
وكان يبث الشجو فى الناس شدوه إلى أن يهيج السمع والروح والذهنا
يغنى فيبكى السامعين غناؤه كذلك يشجى العندليب إذا غنى
وأحسن من غنى من الطير بلبل تبوأ فى غناء من جنة غصنا
على فنن لدن نزا وهو صائح فهز وأحنى تحته الفنن اللدنا
وأكثر إحسانا من الطير شاعر إذا قال راعى فى صناعته الفنا
وما اليوم عجز الشعر عن خور به ولكنها الأشجان لا تقبل الوزنا
كأنى اليه لم أمتّ بقربة ولم أك للمطبوع منه أباً وإبنا
من الشعر ما يلقى الردى قبل ربه إذا قصر المعنى المراد فما أغنى
وأما الذى قد كان معناه فائضاً فيفنى الذى قد قاله وهو لا يفنى
وللشعر جسم ناعم هو لفظه وللشعر روح ذو شعور هو المعنى
أرى الشعر بعد الوحى أكرم هابطا من الملأ الأعلى إلى الملأ الأدنى
ولا خير فى شعر وان راق لفظه إذا كان عنه فى الهداية يستغنى
وقد يتفشى الشعر كالنور سائحا فيركب متن الصبح إن لم يجد متنا
وقد تسمع الأذنان جعجعة له ولا تشهد العينان عوض له طحنا
يريدون منى أن أغنى باسمهم وأى هضيم باسم أعدائه غنى

الظلم يقتلنا والعدل يحيينا[1]

قالها قبل الدستور العثمانى :

خفف من الظلم إبقاء وتهوينا فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا
يامالك الأمر ان الناس قد ضجروا عامل برفق رعاياك المساكينا
لهوت عنا بما أوتيت من دعة فابيض ليلك واسودت ليالينا
ليست طريقك محمودا مغبتها فابدله إن شئت فى الأحوال تحسينا

(١) ديوان الزهاوى — ص ٢٧٥

لقد ملكت فأسجح اننا فئة ... لا شيء غير جمال العدل يرضينا
ما أن تهضم سلطان رعيته ... فالملك قبلك قد ربى سلاطينا
كانوا على الناس آباء أولى شفق ... وفى الأرائك أملاكا خواقينا
وكانت الناس فى أيام دولتهم ... لا يبخسون على الناس الموازينا

٭ ٭ ٭

قست قلوب ولاة أنت مرسلهم ... كأنما الله لم يخلق بها لينا
تراهمُ أغبياء عند مصلحة ... وفى المفاسد تلقاهم شياطينا
ان الرعية أغنام يحد لها ... عمالك المستبدون السكاكينا

٭ ٭ ٭

ياشمس لا تشرقى بالنور أوجهنا ... فذاك يملأ غيظا قلب والينا
وأنت يا ريح إن راعيت جانبنا ... فلا تهبى على جهر بوادينا
ماذا على من يشم العدل مكتفيا ... بنفحة منه ان عاف الرياحينا
يا عدل ان التفاتا منك يسعدنا ... يا عدل إن ابتساما منك يكفينا
يا عدل من كان محبوبا محاسنه ... ما هكذا يصرم القوم المحبينا
يامن لياليهم باللهو قد قصرت ... تذكروا اننا طالت ليالينا

٭ ٭ ٭

قد سافر الجهل إلاً عن منازلنا ... وأثمر العلم إلا فى نواحينا
ما جاءنا الشر إلا من تهاوننا ... ما عمنا الظلم إلا من تغاضينا
لا بد من فك ما قد شد من عقد ... كف الأسار بأيدينا بأيدينا
أما الذين استحبوا قتل أنفسهم ... فراً من الضيم ما كانوا مجانينا

٭ ٭ ٭

ما كنت أرتحل (١)

ألقاها فى الحفلة التى أقيمت فى دار الوجيه الأديب جميل بك بيهم، تكريما له، وقد حضرها جمهور من علية بيروت وأدبائها وصحفييها بعد أن ألقيت عدة قصائد وخطب فى الترحيب به .

لولا تفاقم شر ليس يحتمل ... ما كنت عن وطنى بغداد أرتحل
اليأس بالأمس من بغداد أخرجنى ... واليوم جاء إلى بيروت بى الأمل
عجلت فى السير عن بغداد خشية أن ... تنسد من ريبة فى وجهى السبل
وكنت أرضى لقاء الموت منتحرا ... لو كان لى من حياتى هذه بدل
اعوج من حقدهم ناس على بها ... وهكذا الناس معوج ومعتدل
فما رآنى جذلانا بها أحد ... وهل لمثلى فى أوطانه جذل
يممت بيروت أستشفى بطيبته ... وقلت عل جروحى فيه تندمل
بيروت عز بلاد الضاد قاطبة ... بنهضة القوم فيه يضرب المثل
هناك شعب بصير بالحياة فما ... تراه يوما بغير العلم يحتفل

* * *

لا ترفع المرء أقوال يفوه بها ... بل يرفع المرء سعى المرء والعمل
وقد يصيب جليلا حادث جلل ... فلا يغل يديه الحادث الجلل
وللنساء لدى أهليه منزلة ... كما يليق بشعب هب يعتدل
إن الرجال لهم نقص بمفردهم ... وإنما بالنساء النقص يكتمل
هل يستطيع كما قد ينبغى عملا ... جسم أصاب لداء نصفه الشلل
إنا نريد حياة لا يضر بها ... تعصب ولأم الناقد الهبل
ما ضرنا الجهل لا نصغى لقالته ... فكل أرض على الجهال تشتمل
لكن شعبا يكون القائدون له ... من الألى عرفوا بالشر ينخذل

---

(١) ديوان الزهاوى – ص٣٥٦

من استطاع دفاعا عن حقيقته ... فانه وحـــده فى قومه البطل
إن القوى جسور فى تكلمه ... ومن علامات ضعف القائل الوجل
والرأى إن كان عن حب بصاحبه ... فليس ينفع فى تمحيصه الجدل
إذا التكاليف لم تقسم بمعدلة ... فقد ينوء بظهر الحامل الثقل
مازال يرجو شفاء كل ذى مرض ... حتى إذا مات فى أصحابه الأمل

٭ ٭ ٭

تأخر القوم فى بغداد من كسل ... وكم تأخر قوم عندهم كسل
الناس بالقصف فى بغداد لاهيةً ... كل امرىء فله عن غيره شغل
وأى قصد يرجى المرء فى بلد ... به تساوى سداد الرأى والخطل
تشابهت فيه مرضاة وموجدة ... كما تشابهت العضات والقبل
نصحتهم أن يثوبوا من جهالتهم ... وأن يكون لهم بالعلم مشتغل
نصحتهم أن يكونوا عاجلين له ... فانما الوقت مطلوب له العجل
لكنما القوم كل القوم ما سمعوا ... نصحى الذى كنت أبديه ولا قبلوا
راموا وصولا إلى ما فيه منفعة ... لهم وفى الوقت لم يسعوا فلم يصلوا
إلا شبابا من الأحرار نزعتهم ... إلى التقدم لا يثنيهم الملل
بالعلم تتحد الآراء صائبة ... والرأى يفعل مالا يفعل الأسل
كم قد تصدت إلى الأعمال من فئة ... فكان فيها نصيب الجاهل الفشل
العلم عدة ناس مالهم عدد ... والعلم حيلة من أعيتهم الحيل

٭ ٭ ٭

أقول للشعب أنت اليوم ذو ظمأ ... إلى العلوم فلا علّ ولا نهل
إن فاتك الغمر من ماء تريد به ... بلّ الأوام فما إن فاتك الوشل
هل يزهر العلم فى أرض أماثلها ... عليه بالمال فى حاجاته بخلوا
لا ينبت الروض أزهارا ولا عشبا ... حتى يجود عليه العارض الهطل

٭ ٭ ٭

ورب غرّ أتاه ما نطقت به   ذبا عن امرأة قد ضامها رجل
فغاظه الأمر حتى جاءني حنقا   كأنه وهو يعدو مزبدا جمل
أنحى يسب ولم يستحي من أدبي   ولا من الشيب في فوديّ يشتعل

* * *

قد كفروني لأني في مجالسهم   على الحقيقة إما قلت أتكل
وجادلوني عن جهل وعن سفه   فما أضر برأيي منهم الجدل
الحق يندبني فيها فانصره   والعقل يأمرني فيها فأمتثل
وليس يعظم بعد الله في نظري   الا الأثير الذي بالكون يتصل
فكل شيء من الأشياء منه أتى   وكل شيء إليه سوف ينتقل
وانه هادم فيه ومنهدم   وانه فاعل فيه ومنفعل
لكل شيء نظام في تكونه   وإنما يعتريه بعده الخلل
هو القوى وهو أجسام قد اتصلت   بغيرها وهو الأجسام تنفصل
وانه هو نفس الشمس طالعة   وانه بكر الأيام والأصل
وانه هو معلولات قدرته   قديمة ولمعلولاته العلل
ما الكون إلاّ فضاء لا حدود له   والزهر إلاّ شموس فيه تشتعل
إذا تصور ما للكون من سعة   عقل الحكيم بحق فهو ينذهل
فيه الوجود ترقى من تنازعه   والأرض، الشمس، الانسان، الدول
تدور فيه نجوم لا انحصار لها   وكل شمس لها في دورها أجل

الدمع ينطق (١)

وهي التي نشرت يومئذ في (السياسة) المصرية فقامت حولها ضجة :

تفجر يبكى فى صموت ويشهق   وقد كان منه الدمع بالحزن ينطق
وضم انكساراً يبعث الشجو لاعجاً   إلى عبرة فى عينه تترقرق
إذا سألوه عن شكيته بكى   ورب بكاء صامت هو منطق
بكى وبكى ماأن يكفكف دمعه   بأيديه حتى كاد بالدمع يشرق
وكان الفتى فيما أتانى عاشقاً   وقد هلكت تلك التى هو يعشق
تألق نجم فى سماء رجائه   وغاب أخيرا ذلك المتألق
سيبقى جديدا ليله ونهاره   وكل جديد غير ذينك يخلق

* * *

وليس يبالى ميت فى حفيره   بأن ضريحاً فيه قد نام ضيق

* * *

وسائلة هل بعد أن يبعث البلى   بأجسادنا نحيا ونرنو وننطق
فقلت مجيباً اننى لست واثقاً   بغير الذى حسى له يتحقق
وهيهات لا ترجى الحياة لميت   إليه البلى فى قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد   فهل بخلود الروح عندك موثق
وإنى على على سعادة ميتتى   بحبل حياتى هذه متعلق
بلغت عتيا من سنين صحبتها   وما أنا فى يوم إلى الموت شيق

* * *

تقدمنا ناس كثار إلى الردى   وأنا بهم من بعد حين سنلحق
سنرقد تحت الأرض والزهر بعدنا   ستطلع فى الأجواء والشمس تشرق
وكم لى من رأى إذا ما بسطته   يقولون زنديق من الدين يمرق
إذا جئت كذبا فالضمير يلومنى   وإن قلت حقا فالمخاطب يحنق
وإنى رأيت الصدق أحسن خلة   ولكن قليل من إذا قال يصدق
خض اللج من بحر الطبيعة سابرا   ولا تخش عند الخوض أنك تغرق

---

١ — اللباب — ص ٢٢٢

الواصفة (١)

أنى أمرؤ لا أجهر إلا بما أنا أشعر
لا أطمئن لغير ما أنا سامع أو مبصر
وأشك فى نبأ به يفضى إلى المخبر
بل لا أصدق منه شيئاً قبلما أتبصر
أما الخرافة فهى ما عنه أفر وأنفر

* * *

لا أقتفى أثر الغلوا فى غير أنى أنظر
عاشرننى فرأين كيف يعف منى المئزر
لا أكبر الأشياء ليست فى العواقب تثمر
العقل من إكباره تلك السخائف أكبر
قد آلموني بالهراء من الكلام وأكثروا
وتعصبوا حتى رمونى بالمروق وكفروا
إن نابنى شر فإنى منه لا أتذمر
أو جاءنى خير فلا أغتر منه وأبطر
أرد النمير وبعدما أروى غليلى أصدر

* * *

أنكرت ما حمد الورى وحمدت ما قد أنكروا
ولقد قنعت من الطعام ببلغة تتيسر
لا كالذين على طعام واحد لم يصبروا
أو كالذين إذا تغيرت الظروف تغيروا

---

(١) اللباب : ص ٢١٣ .

أو كالذين إذا تجمهرت الرعاع تجمهروا
أو كالذين تذللوا أو كالذين تكبروا
أو كالمنافق جاء يظهر غير ما هو يضمر

* * *

والشعر لست أقوله إلا كما أنا أشعر
ما ان أقلد من مضت قبلى عليه الأعصر
والشعر قائله بتقليد الطبيعة أجدر
إن الطبيعة مورد للظامئين ومصدر
يجد المواضيع الكبيرة عندها المتفكر
والشعر ليس سوى الذى هو للشعور يصور
والشعر بالمعنى المطابق للحقيقة يكبر
ولقد يثير عواطفا من سامعيه ويسحر
والشعر مرآة بها صور الطبيعة تظهر
ليس القريض بطوله بل قد يفوق الأقصر
ولقد يطيل قصيدة فيجيد أشعث أغبر
وإذا البراعة ووزنت يتقدم المتأخر

* * *

ما للأديب بعصره فى الشرق قدر يذكر
أما الشقاء فحظه منه الأتم الأوفر
ولقد يصادف عزّه من بعد ماهو يقبر
من بعد ما فى قبره أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم يرجو ميت لا يشعر

* * *

الشعب[1]

ما أن ينال الشعب مجدا حتى يلاقي منه جهدا
قد خابت الآمال في شعب من الجهل استمدا
لا يهتدي الساري إلى العلياء ما لم يلق وقدا
ما لم يكف عن القديم وسخفه ما لم يجدا
ما لم يغير ثوبه ما لم يمزق ما تردى
ما لم يكن عند الشدائد ان زحفن إليه جلدا

* * *

لا يبتغي استقلاله شعب له لم يستعدا
شعب إذا لم تستبد به حكومته استبدا
شعب يلم بشره وإذا ألم فلا مردا
شعب يظن الجد هـزلا كله والهزل جدا
شعب يعرض للطغام بكل يوم منه خدا
شعب إلى بث الخلاف له مراح ثم مغدى
شعب تعصب للحجاب مشددا حتى تعدى
شعب بنى بين النساء وبينه للجهل سدا
قد شل منه النصف حـتى كاد منه الكل يردى

* * *

يأتي الزواج بأربع ويخال ما يأتيه رشدا
ويرى هناك طلاق سلـمى واجبا ليحوز سعدى
إني لأعجب كيف يلقى العيش ذو الأزواج رغدا

---

(١) اللباب : ص ٢٤٨ .

بل كيف يجمع واحد　　في منزل ضدا وضدا

* * *

القوم يا ابنة يعرب　　من قسوة وأدوك وأدا

* * *

الشيخ فى عين الفتاة (١)

ما الشيخ فى عين الفتاة　　مهما أطاب سوى قذاة
الشيخ يحتقر الطبيـــعة إن تزوج بالفتاة
هو فى تزوجه بها　　يلقى السلامة فى الأذاة
لم تليق عينى مشهدا　　كالموت فى جنب الحياة
ما أتعس الحسناء فى　　أحضان معوج القناة
وإذا القلوب تقرحت　　بطلت معالجة الأساة

* * *

قد غاظنى شيخ تزوج كاعبا مثل المهاة
شرس – على كبر أهانته السنون به – وعاتى
هى كالحمامة فى الوداعة وهو فظ كالبزاة
احتازها بالمال قد أعمى أباها والهبات
وجه تفيض به الصباحة مثل زنبقة الغداة
وحواجب زج تطل　　على عيون ناعسات
وفم جميل فوقه　　أنف يزين الوجه ناتى
والجيد أتلع مثلما　　شاهدت فى ظبى الفلاة
يحلو لعينك ما لها　　عند السنوح من التفات

(١) اللباب : ص ٢٥٤ — نشرت فى السياسة الأسبوعية

أما القوام فإنه لدن كعالية القناة
ويزينها فرع إلى حلك الليالى ذو متات

* * *

فبنى عليها قاضيا من جسمها وطر البناة
حتى إذا ما ملها ابدى لها جنف الطغاة
حنق على هذا الزواج الدهر من ماض وآتى
ما زال يرمقها كذئب وهى راجفة كشاة
يقسو عليها كل يوم فى العشى وفى الغداة
يمضى على استخدامها بالدار فى شر الهنات
فكأنها لشقائها ليست هناك سوى اداة
شتم ولطم ثم ركل ثم مختلف الأذاة
قد هاجنى ما كنت أسمعه هنالك من شكاة

* * *

ووجدتها يوما بشاطىء دجلة تمضى وتاتى
وكأنها عزمت على أمر يروع بلا أناة
وكأنها قد صممت أن تستريح من الحياة
وكأنها كانت تقول بأعين مغرورقات
سحقوك ياليلى فأنت اليوم لست سوى فتات
بعلى الغشمشم آخرا وأبى وأمى فى البداة
ماذا تفيد شكايتى والظالمون هم قضاتى
مالى صديق فوق وجه الأرض أسمعه شكاتى
الدهر والإنسان والأقدار كلهم عداتى
قالوا يواتيك الزمان فانه جم الهبات

أما الزمان فانه جاف لمثلى لا يواتى

* * *

قد غبت يا طيف السعادة عن عيونى المخضلات
إنى رأيتك يوم كنت أسير صاحبة لداتى
كالأقحوانة لم تمد لقطفها أيدى الجناة
فى يقظتى إذ كنت أنظر فى السماء وفى سباتى
إذ كنت أعدو غرة خلف الفراش مع البنات
إذ كنت أمشى للغدير ومنه أرجع كالقطاة
إذ كنت أبسم للآلى كانوا الى من الرناة
فعشقت منه الزهرة الحسناء عابقة الشذاة
كانت هنالك فرصة لأحوزها قبل الفوات
لم أنتهزها من شقا ء لى وكنت على بتات

* * *

يا موت خذنى عاجلا يا موت فيك أرى نجاتى
من بعد ما عانيت ما عانيته ماذا أناتى
صلّيت للديان ضارعة فما نفعت صلاتى
يكفيك ما قاسيته يا نفس من أيدى القساة
يا موت عجل بى إليك فقد سئمت من الحياة
يا موت انى فيك أرغب فأننى إن كنت تاتى
إنى بلا حام فكن لى اليوم أنت من الحماة
أكبر بداء بى يكون الموت فيه من الاساة

* * *

يا دجلة الحمراء أطلب منك عارقة فهاتى

يا دجل آوينى فعندك ملجأ للمحصنات
أنا من نكايات الرجال إليك أحدى اللاجئات
ولقد قصدتك بعد أن أخفقت فى كل الجهات
فوجدت أبواب السلامة غير بابك موصدات
إنى ساودع جوفك المخفى عن عينى رفاتى
إنى سـأدفن فيك بعد هنيهة ذاتى بذاتى
فتكون حينئذ قد انقطعت من الدنيا صلاتى

* * *

إن المنايا قد بدت لى فى مياهك كاشرات
يا نفس مالك ترجفين كذا ، امالك من ثبات
ورأيتها ترمى بدجلـة نفسها مثل الحصاة
وطلبت فرصة نشلها فوصلت من بعد الفوات
غابت نخلت الشمس قد غربت برائعة الغداة
وفشا النعى فلم أجد غير البواكى والبكاة

* * *

قد كنت أعرف جيدا هذى النهاية فى البداة
انى رأيت المسـلمين يخاشنون المسلمات
وأرى النساء من الرجال يعشن غير مكرمات
وأرى الاماء سوافرا والسيدات محجبات
وهنالك الأبناء قد مردوا فعقوا الأمهات
وعدت على أزواجها أبناء دجلة والفرات
يجد الجهول البنت عارا ما لها حق الحياة
أما اللبيب فلا يرى فضل البنين على البنات
يا شرق أنت اليوم فى نظرى كما بالأمس عاتى

القارعة [1]

أهب بالشيب وأذكر الشبابا فهذا لا يطيب وذاك طابا
وما كان الشباب هناك إلاّ كنجم قد تألق ثم غابا
إذا قلبي تذكره بصدري تنزى خافقا فيه ولابا
مضى صحبي وأخرنى زمانى كأن له على شخصى حسابا
أرى الأيام مذ ولى شبابى على تمر حانقة غضابا
كأنى حين أذكر ما مضى من شبابى ناظر منه شهابا
كتبت الوكة أدعو المنايا وأنى اليوم أنتظرُ الجوابا

* * *

وكنت هبطت قبل سنين مصرا فلم أهدأ وفضلت الايابا
ذكرت مواطنى وذكرت أهلى وليلى والصبابة والشبابا
وقلت لقد نأت بغداد عنى فليت الدهر يمنحنى اقترابا
ولو أنى رجعت إلى بلادى لقبلت المنازل والترابا
شربت من النوى لشقاء نفسى شرابا ثم لم أسغ الشرابا
ومن يشرب على ظمأ حميا فليس بناقع منه اللهابا

* * *

فراق لا أعاتب فيه ليلى فليلى ليس تحتمل العتابا
وقلت سأحمل الأعباء وحدى ولا أشكو شقائى والعذابا
وكانت لا تزال هناك ليلى فتاة مثلما كانت كعابا
وأنت مصدق لو أن ليلى أماطت عن محياها النقابا
لقد سألت فآلمها سؤالى وإن لكل سائلة جوابا

---

(١) اللباب : ص ٢٦١

أطالب بالحقوق وكل حر قمين أن يطيل بها الطلابا
وهل تخشى يد كتبت بصدق دفاعا عن كرامتها تبابا

• • ◦

ويممت المواطن نائيات احثحث من مسارعتي الركابا
ولم يك مركبي إلا قطارا جرى للأرض ينتهب انتهابا
رأيت النار وهي لها ازيز بمرجله تشق به اليبابا
سرى والليل معتكر بهيم يجر وراءه غرفا رحابا
وأسرع لامسا صدر الفيافي يجوب السهل منها والهضابا
يشق بصدره البيداء شقا كما صدعت بك الفلك العبابا
فأوصلني القطار إلى دمشق بيوم واحد للنفس طابا
وسرنا نبتغي بغداد منها على سيارة مرقت ذهابا
فجئناها كذلك بعد يوم سوىّ لم نلاق به الصعابا
فكنت كطائر الفى بعش بناه حية فمضى وثابا
بهاجرة لديها كان يجري لعاب الشمس أن لها لعابا
فودت أنها قبل انفلات له لو امسكت منه الذنابى

• • ◦

ولما عدت بعد نوى شطون إليها راعني وطني ورابا
رأيت معاهد الآداب فيه من الإهمال دارسة خرابا
ذهبت إلى الرياض فساءني أن أرى عوض الهزار بها الغرابا
واني في خمائلها اعتياضا عن الغريد أستمع النعابا
رأيت السعد يخفي منه وجها رأيت النحس يبدي منه بابا
وألفيت الذناب يذم رأسا وذاك الرأس يمتدح الذنابا
وأعجب مشهد لافيت فيه خراف بعدي انقلبت ذئابا

وكنت مؤملا فى غير هـــذا   من الأحوال أن ألقى انقلابا

* * *

وكم لى فى المواطن من عدو   رمانى بالسهام فمـــا أصابا
أقول لهم خذوا فى السهل سيروا   وخلوا لى الوعورة والهضابا
فليس لـكم لدى الإدلاج حول   على أن تسلكوا الطرق الصعابا
فراحوا ينشرون الـكذب عنى   ومن سفه يكيلون السبابا
ولم يأبه بمـا قالوه إلا   غبى أو سفيه قـد تغـابى

* * *

رأى الأعداء شيخاً أقصدته   سنوه أن يحاسبهم حسابا
رأوه عن الركوب اليوم يعيا   وقـد ركب المسومة العرابا
فقـالوا انه شيخ كسيح   فلا تخشى له ظفرا ونـابا
فشنوا منهم الغارات تترى   يعدون التجدد فىّ عابا
يريدون الوقيعة بى عداء   وأن يقضوا على أدبى اغتصابـا
ولـــكن لايزال الشيخ هذا   يقـاوى بالنهى الصم الصلابا

* * *

لقد هابتك ياقلى الأعادى   وأنت فتى جدير أن تهابا
وما نظر العـــدى إلا بعين   أبت أن تبصر الحق الصوابا
كذاك الحقد يسدل بين ناس   وبين الحق مؤتلقاً حجابا

* * *

وحرب قد أثاروها عوانا   على حزب التجدد إذا أهابا
نخاضوها وما اتخذوا سلاحا   لهم إلا الشتيمة والسبابا
وإلا القول يعوزه دليل   وإلا الزور منهم والـكذابا
رموا بسهامهم أدبى وشعرى   إلى أن أفرغوا منها الجعابا

أشادوا بالقريض وهم أناس ... له جهلوا وكان الجهل عابا
وأبدوا فى الجديد لهم ظنونا ... وفيها أخطأوا الحق الصوابا
لقد ظنوا سراب القفر ماء ... وظنوا الماء بعدئذ سرابا
ولم أحفل بهم حتى تعادوا ... على سفه يسيئون الخطابا
فعندئذ رفعت الكف منى ... أذب بها عن الأدب الذبابا
وأربأ أن أجرد من يراعى ... حساماً ثم أجعله عقابا
وفى كفى اليراعة ذات حد ... تبذ به القواضب والحرابا

* * *

ولى شعر كحد السيف ماض ... أغالب فيه من يبغى الغلابا
هتفت به وكنت له زعيما ... أعيد إليه فى شيبى الشبابا
إلى أن ذاع فى الأقطار صيتى ... فكان لحاسدى أدنى مصابا
وليس قريضهم فى الذوق إلا ... عجوزاً غيروا منها الثيابا

* * *

وليس يغيظنى أحد كغر ... يرى فى نفسه أدباً لبابا
تحفز يبتغى نقداً لشعرى ... ومنه الحقد قد ملأ الإهابا
إذا ركض اليراع يريد نقدى ... رأيت هنالك العجب العجابا
رأيت جهالة ورأيت سخفاً ... ورأياً لم يكن يوماً صوابا
تبجح وهو لم يبلغ نصابا ... فكيف يكون لو بلغ النصابا
طفا فى عيلى بعد انتفاخ ... له فحسبته فيه حبابا
وبعد هنيهة مرت عليه ... تضاءل فى الغطمطم ثم ذابا
تجرع ياحسود الماء صردا ... فأنت اليوم تلتهب التهابا
ولم تسكت أخيراً عن رشاد ... ولكن قد أصابك ما أصابا

* * *

تقول لذا وذاك أنا بنقدى ... وإن أخطأت فى كلمى الصوابا

أحاول شهرة فى الارض لاسمى وأرجو بعد ذلك لى ثوابا
ولا تدرى بأن الجهل داء فلا يؤتى الفتى إلا عذابا
وأن أهلك فلا تفرح لهلكى سيملأ فاك أنصارى ترابا

* * *

ورب منافق فى الوجه أطرى فلما غبت أقرفنى وعابا
وليس صديقك المطرى وجاها ولكن من يصون لك الغيابا
وقد أقصيته عنى فوافى يعفر خده وبكى ولابا
ولكن الذئاب الطلس مهما أرتك وداعة تبق ذئابا

* * *

قرضت الشعر بالشعر إفتناناً ولم أطلب به المنن الرغابا
ولو شاهدت فى مصر اصطدامى بمن قد جاء يصدمنى غلابا
جرى وجريت فى بحر خضم وكان البحر يضطرب اضطرابا
اذن لرأيت فى ذهل عبابا أتى متدفقاً يلقى عبابا

* * *

حرية الفكر (١)

عظيم على الأفكار فى عصرنا الحجر أما كل إنسان بآرائه حر
وهل فقه الشعب المريد انطلاقه من الأسر أن الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريره من أساره إذا لم يكن فى رأسه حرر الفكر
وأى رقى فى الحياة ميسر لقوم بقول الحق ما ان لهم جهر
يرومون للأفواه كما بعنفهم وذاك لعمرى ثم ذاك هو النكر
لقد أصدرت مصر الرشيدة حكمها لطه فنعم الحكم ما أصدرت مصر

---

(١) اللباب : ص ٣١٨

فقد برأته بعد أن بان صدقه ... ولاح لها أن ليس فى فعله وزر
وقد فعلت وهى النزيه قضاؤها ... من العدل مايرضى به الحزم والعصر
إذا ماأضاء العلم أرجاء بقعة ... نأى الجن عنها والعفاريت والسحر
أمن رام فى الحق الصراحة كافر ... وما بأناس كفّروا مسلماً كفر
لقد شتموه حين باءوا بعجزهم ... وقالوا وما قالوه فيه هو الهجر
وقد طلبوا للدين نفعاً بشتمه ... ولكنهم للدين ضروا ولم يدروا
لقد جهلوا عصر النهوض وفعله ... وقد يعلمون النزر لو نفع النزر
وقد كفّروا من قبله بجهالة ... علياً ولكن عنه لم يدفع الشر
وقد أبعدوه عن وظيفته ولو ... تقاضوا إلى الأنصاف لانعكس الأمر

* * *

يراقب كل الشرق مصر بسمعه ... ليعلم ماذا بعد فاعلة مصر
فلو خسرت مصر هدى الله سعيها ... لكان بكل الشرق يلتحم الخسر
إذا سار من يبغى العلا فى طريقه ... بعزم تساوى عنده السهل والوعر
هو الشرق قول الحق فيه جريمة ... «كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
هنا فليفض ماء العيون جميعها ... «وليس لعين لم يفض ماؤها عذر»
إذا الشرق لم ينقع من القطر غلة ... بأكباده الحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره ... أما بعد ليل الشرق محلولكا فجر
ترامق حر الرأى فى الشرق أعين ... يدل على أحقادها النظر الشزر
ولابد من اخذ العروبة حقها ... وان حالت الأقدار أو خذل الدهر
أرى العلم روضاً مجدباً فى ربيعه ... وقد كان معشاباً فهل أخلف القطر
وما البلبل الغريد للمى صامت ... ولكنما فى الروض قد نفد الزهر
إذا سكت العدل الذى هو عاجز ... عن الحق فى أرض فما يسكت الشعر
وإن امرأً قد مسه الحيف فادحاً ... ولم يتحرك ذائداً لهو القبر

* * *

تباشير الانقلاب (١)

أنشدها فى الحفلة التى أقيمت للمؤتمر النسائى فى نادى لوره خضورى

من بعد ما انتظرت حقابا ... ثارت فمزقت الحجابا
عربية عرفت أخيرا ... كيف تنبذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها ... خسفا ويرهقها عذابا
وسيطلب التاريخ من ... ناس لها ظلموا حسابا
سألت لها حرية ... منهم فما لقيت جوابا
حتى إذا ما استيأست ... خرقت بأيديها النقابا
فرأت أمام سفورها ... للمجد أفنية رحابا
ذهبت كزوبعة لها ... صخب فأحمدت الذهابا

* * *

أحسنت يا ابنة يعرب ... صنعا واتبعت الصوابا
فلقد كفاك غضاضة ... ذاك الشقاء بما أصابا
ليس الجمود سوى خضوع قد يجرّ لك التبابا

* * *

إن الحياة لتبتغى ... فى عصرنا هذا انقلابا
ظهرت تباشير له ... تبنى المنى منها قبابا
خوضى إلى المجد الأثيل – مع الألى خاضوا – الصعابا
وتنكبى الوهد الذى ... يخفيك واطلبى الهضابا
أما العباب فإنه ... إن حال فاقتحمى العبابا
الحق حقك فانشديه فى محاولة طلابا

---

(١) الأوشال : ص ١٧٩ .

وإذا أبوا نخزيه منهم فى مكافحة غلابا
لا تعبئ أبدا بغربان يواصلن النعابا
وذرى من الدين القشور جميعها وخذى اللبابا
لا خير فى ناس إذا أفحمتهم ولوا غضابا
عزوا الحجاب إلى الكتاب فليتهم قرأوا الكتابا
إن التعصب مانع أن تبصر العين الصوابا

* * *

ما عاش شعب نصفه قد شل من داء أصابا
ما كان خدرك غير سجن مظلم يولى اكتئابا

* * *

إنى لأرجو أن أرى التوقير فى الفتيان دابا
وألوم من مردوا فلم يبغوا عن السفه اجتنابا
كم من خراف حين أدجى ليلها انقلبت ذئابا
لما رأت لحما طريا أبرزت ظفرا ونابا

* * *

ولرب فاتنة العيون لحاظها تحكى الحرابا
وترى خصائل شعرها فتخالها تبرا مذابا
زفت إلى وحش فسلت فى حيازته اكتئابا
وأجاعها شحا ولم يحسب لجوعتها حسابا
هل ظن أن المرهق الغرثان يلتهم الترابا
ولقد غلى منها الأسى فتفجرت تبكى المصابا
إن الأسى إما غلى ليفجر الصم الصلابا

* * *

وتعاتب الأقدار لو يسمعن من أحد عتابا
ذم الجهالة أنها ما أورثت إلا خرابا

يا ماء أهلى أين أنت فإننى أشكو اللهابا

* * *

يا قبر « ليلى » أنت تحوى فيك زنبقة كعابا
حيتك واكفة الحيا تهمى فتنسكب انسكابا
كم مثلها من نسـوة يرجون فى الصبر الثوابا
يلوين من جور الرجال وقد تبرمن الرقابا
ما لى رجاء فى الشيوخ وإنما أرجو الشبابا
من كل وثاب إذا أغريته اقتحم الصعابا

* * *

الناس فى الآراء يختلفـون بعداً واقترابا
بسم المنى لأقلهم خطأ وأكثرهم صوابا

* * *

إنى أرحـب بالالى بلد الرشيد بهن طابا
أوليننا النعم الرغاب وما توخين الثوابا
بل خدمة الوطن العزيز بهن عن بعـد أهابا
نعم سأشكرها ومن لا يشكر النعم الرغابا
وكذاك تشكر كل أرض عضها الجدب السحابا

* * *

يا « نور » هذا الحفل قد بلغت بطولتك النصابا
لا تحسبى للمرجفين ومن روى عنهم حسابا

يا عيـــد[1]

قد عدت بعد ذهاب منك يا عيد ... إذ كل شيء يسرّ النفس مفقود
أأنت عيـد به الأفراح شاملة ... أم مأتم فيـه للأحزان تجديد
عيد أجل أنت عيد لا سلامَ به ... إلا لمن قلبه بالغش معقود
عيد به عنك هذا الناس فى شغل ... بهمها ما بها فى الألف مسعود
عيد ألمّ على يأس بمملكة ... وليس فيه لجرح سال تضميد
حيث الدخيل سعيد من تزلفه ... وعن مواطنه للحر تشريد
عيد تمج جراح الحق فيه دما ... وخنجر الضيم فى الأحشاء مغمود
عيد يكابد فيه المسلمون أسى ... مبرحا ما عليه الصبر محمود
يبغون ركنا لهم يستعصمون به ... والركن من ضربات الدهر مهدود
يؤملون زعيما فيـه تسرية ... وهل يسرى عن المصفود مصفود
يشكو تباريحه الإسلام مضطهدا ... أين الاباة وأين الذادة الصيد
الحق يوطأ بالأقدام منسحقا ... وما هنالك يحمى الحق صنديد
باب المنية مفتوح لمضطهد ... وكل باب سواه فهو مسدود
الغيد تبكى شجاها فى المصاب وما ... أشجى دموعا همت تبكى بها الغيد
ما إن لها من عقود غير أدمعها ... منها تحلى بها اللبات والجيد

* * *

نالت مطالبها الأقوام قاطبة ... ومطلب العرب المهضوم مردود
فى كل يوم تصيب القوم كارثة ... فداحة ويروع القوم تهديد
لا قلب إلا وفيه الحزن مرتكم ... وما لأبعاد هذا الحزن تحديد
لا الروض نضر كما قد كنت تعهده ... ولا لبلبله الصيداح تغريد
أتى على الروض حتى جف من ظمأ ... يوم من الدهر يشوى النبت صيخود
تسر بالعيد أقواما أولى شمم ... أيامها البيض لا أيامها السود

---

(١) الأوشال — ص ٢٤٩

اذهب فإن قلوب الشعب دامية ... ما إن لها من سلو فيك يا عيد
وكيف تفتح أبواب السرور لها ... وفى يد غير أيديك المقاليد
كنا نرحب بالأعياد عائدة ... لو كان فى العيد للأحزان تبديد
لا وحدة فى النظام اليوم تجمعهم ... فإن قومى عباديد عباديد
وما بكل بلاد العرب من جذل ... ولا بكل بلاد العرب مسعود
قد كان وجهك بساما لناظره ... واليوم يملأ منك الوجه تجعيد
أظافر الدهر غاصت فيه عابثة ... ففيه من كل ظفر منه أخدود
الدهر يعطى سرورا ثم يمنعه ... وذلكم منه لا بخل ولا جود

٭ ٭ ٭

ما كان قبلا لهذا الشعب من خطل ... حتى اطمأن فغرته المواعيد
إن السهام وأن كانت منصلة ... يعوزها منه عند الرمى تسديد
ذم المدافع للأسماع قارعة ... كما تصادم جلمود وجلمود
نريد ظلا يقينا الحر من شجر ... لم يبق أخضر منه اليوم أملود
لم يبق عندى بغير الشعر من ولع ... وإنما الشعر أغرود وأغرود
وما الحياة سوى نار مؤججة ... يثيرها فى دم الشبان بارود
وإنها لاصطدامات بمنحدر ... كما تصادم بالسيل الجلاميد
قد علمتنى تجاربى التى سبقت ... أن ليس يظفر بالحاجات رعديد
أيام ذى العز أعياد برمتها ... أما الذليل فهذا ما له عيد
تجرد العود لما هيض من ورق ... فهل ستصبر حتى يورق العود
لم أستمع ردحا للحق من نبأ ... حتى تظنيت أن الحق ملحود
يا حق إنك من كل الذين بهم ... عثت يد الحيف فى الأقطار منشود
للحق حامٍ وفى الأيام متسع ... ألست تؤمن أن الله موجود

نكبة الفلاح(١)

(١)

قد طغى يطفح الفرات وعبا يملأ الأنفس الجريئة رعبا
ساعة ثم طبق الأرض ماءا فكأن الأتى قد جاء وثبا
أن ذاك الذى حسبناه نهرا ضيقـــا أمسى اليوم كالبحر رحبا
غمر الجانبين منه وأنحى يتسامى إلى التلاع فاربى
أغرق الزرع والمساكن والشاء مطافيل والبساتين غلبا
كذبتنا الحياة فى كل شىء ولعل الآمال أكثر كذبا

(٢)

جاء غضبان بادى الأزباد عابثا بالاسداد والأرصاد
ولقد مدته على ما أتاه كثرة للثلوج فى الأطواد
هبت الأمهات فى الذعر ليلا يتعثرن فيه بالأولاد

(٣)

قد تمادى الفرات فى طغيانه وأبى إلا قسوة فى افتتانه
فاض حتى حسبته وهو يسطو ملكا يستبد فى سلطانه
غمر القاع ثم عب فانحى يعتدى مزبدا على كثبانه
أتراه مصارعا يتحدى أم تراه قد هاج من أشجانه
ذاهبا بالشياه يجرفها جرفا وبالزرع وهو فى ريعانه
إنه فى كتساحه الزرع يعثو سل روح الفلاح من جثمانه
لعظيم طوفانه وعظيم ما أصاب الفلاح من طوفانه
ولقد كان قبل ذلك يأتى حاملا للسلام فى أردانه

(٤)

قد طحا بالفلاح يقسو الفرات وله كانت منه تأتى الحياة

---

(١) الأوشال — ص ٢٥

وأصابته في النهاية منه نكبات وراءها نكبات
أمهات لهن تدعو صغاراً وصغار تدعوهم الأمهات
ولقد أصبحوا جميعا بلا مأوى وباتوا وهم جياع عراة
ذهب الزرع عند إدراكه والبيت ثم الشياه والبقرات
كل هـذا في ليلة هطلت فيها السواحي واشتدت الظلمات
إنما هذه الطبيعة قيد والنواميس كلها حلقات

(٥)

القرى قد تهدمت والبيوت ثم عز المأوى وعز القوت
فتيات يعولن خوف المنايا ومنايا تطوف وهي سكوت
بالآتيّ الفلاح فوجيء ليلا فهو في ظهر ربوة مبهوت
ينظر السيل وهو ضخم مخيف يتنزى كأنه عفريت
أمل ذاهب وجهد مضاع وشياه غرقى وشمل شتيت
ليت شعري هل الطبيعة غضبى قد قضت في أبنائها أن يموتوا

(٦)

جلل ما ألم بالفلاح جاءه السيل بغتة وهو طاح
إنه في ليل من الهم داج قد خلا صبحه من الأوضاح
ظل في بهرة النهار مقيما ما له عنها ساعة من براح
أفسدت عيشه صروف الليالي هل لما أفسدته من اصلاح
كلما ازداد الفقر في بلد قلت من اليأس قيمة الأرواح

(٧)

ارأفي يا سماء بالمفجوع بضراعاته وتلك الدموع
بائس ينخز الأسى قلبه كل لياليه ليلة الملسوع

دمعتي (١)

أنت ما أن تخففين مصابي　　دمعتي فارجعي على الأعقاب
انت لا تدرئين عني دائي　　انت لا تصلحين منه خرابي
انت لا تنجدينني في شقائي　　انت لا تنقذينني من عذابي
انت لا تدفعين وطأة شيبي　　انت لا ترجعين عهد شبابي
انت لا تقدرين أن تهبيني　　راحة أو تسكني أعصابي
إنما أنت قطرة ستبلين　　إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيعين بين لحيتي البيضاء أو تنضبين فوق التراب
وسيمتصك الرغام لدى أول　　مس كظامىء ذي لهاب
ولقد تسقطين من حرف عيني　　كالندّى فوق كالىء معشاب

٭ ٭ ٭

ارجعي فالحياة ليست تساوي　　ان تخري من حالق كالشهاب
لا تخري وإن قضى أن تخري　　سبب قاهر من الأسباب
ان نفسي لا ترتضي أن تهوني　　لشجوني وان ملأن إهابي
ليس محمودا ان تقيمي طويلا　　بين حملاق العين والأهداب
يا ابنة الهم ان غرفتك القلب فلا تخرجي إلى الأبواب

٭ ٭ ٭

دمعتي لا تعولي في رزاياك على وعد دهرك الكذاب
فارجعي في مهل إلى القلب مني　　أنت لا تخلقين بالتسكاب
أتريدين من مقرك في نفسي فرارا ينجيك من حر ماني
أنا لم أسأل العيون بكاء　　لتكوني عن السؤال جوابي
ليس من عار في الرجوع على من　　ضل في سيره طريق الصواب
واذا ما هبطت بالرغم عني　　طال يادمعتي عليك عتابي
انني ان بكيت أبكي بشعري　　ولقد أهديه إلى الاحقاب

---

(١) الأوشال : ص ٤٠

كل بيت منه إذا عصروه   دمعة ثرة على الآداب

* * *

بين شعرى وما يجيش بصدرى   من شعور وشائج الانساب
أنا عنه محدث وهو عنى   وكلانا فى القول غير محاب
وعسى أن يبث شعرى شعورى   وعسى أن ينوب شعرى منابى

المرأة والرجل (١)

فى الغرب حيث كلا الجنسين يشتغل   لا يفضل المرأة المقدامة الرجل
كلا القرينين معتز بصاحبه   عليه إن نال منه العجز يتكل
وكل جنس له نقص بمفرده   أما الحياة فبالجنسين تكتمل
بيت نظيف وأولاد قد ازدهروا   كأنهم زهر فى الروض تنتقل
والبيت فيه نظام حين تبصره   وإنه لنظام ما به خلل
تبقى المودة حتى الموت بينهما   فما هنالك شنآن ولا ملل
وإنما غاية الزوجين واحدة   وإن تعددت الأسباب والسبل
وقد يطلقها أو قد تطلقه   إذا قضى بالطلاق الكره والملل

* * *

أما العراق ففيه الأمر يختلف   فقد ألم بنصف الأمة الشلل
ومن تزوج لا عن خبرة سبقت   فانما خطبه فى داره جلل
وقد يعالج هماً لا يزايله   حتى يموت وجرحاً ليس يندمل
وقد يطلقها فى حانة ثملا   وليس تدرى لماذا طلق الثمل
فى البيت بعد وفاق فى الهوى دعة   وفيه بعد خلاف فى الهوى جدل
أعز فتاتك واخطب عن معاشرة   بريئة ولام الناقد الهبل

* * *

(١) الأوشال : ص ٧٠

كم قد تزوج ذو الستين يافعة | والشيب فى رأسه كالنار يشتعل
يقضى لباناته منها إلى أجل | وقد يكون قصيراً ذلك الأجل
ولا يبالى بحبل الود بعدئذ | أكان متصلا أم ليس يتصل
تزوجت وهي لا تدرى لشقوتها | أزوجها أحد الغيلان أم رجل
يسبها لا لذنب ثم يركلها | بالرجل منه مهينا وهي تحتمل
وبعد ذلك يعدو كالنعام إلى | أصحابه وهو مما جاءه جذل
يروى لهم كيف أبكاها وآلمها | كأنه فى ميادين الوغى بطل
ولم تكن أربع يشبعن نهمته | والذئب يشبعه من جوعه حمل
لا تحسبن كل من قد سار مهتديا | وكل من كان معوجاً سيعتدل
القوم إن واجهوا أعداءهم جبنوا | والقوم إن قابلوا أزواجهم بسلوا
إلى السماء العيون النجل شاخصة | ماذا ترى فى السماء الأعين النجل
وددت من كل قلبي غير مختشع | لو عاد يوما على أعقابه الازل
فاسأل الله تقديراً بغير ما | قضاه قبلا فلا ظلم ولا دخل
جاؤوا قبيحاً وسبوا من يعارضهم | فيه ألا بئس ما قالوا وما فعلوا
تلك الشتائم فى الأعراض جارحة | للنفس أكثر مما تجرح الأسل
الغرب والشرق طول الدهر بينهما | تنازع عجزت عن حسمه الحيل
بين الشقيقين من أجل البقاء وغى | ليت الصداقة عن هذا الوغى بدل
والفرق بينهما فى كل ناحية | باد إذا نظرت تستشرف المقل
ولا تكافؤ فيما شب بينهما | هذا يفوز وهذا كله فشل
هذا على نفسه تلقاه معتمداً | يسعى وهذا على الأقدار يتكل
هذا له من نشاط ما يقدمه | وذا يؤخره عن غاية كسل

* * *

تبقى الحياة على الارزاء طيبة | مادامت النفس بالآمال تتصل
لو كنت أشهد بعض العز فى وطنى | ما كنت عن وطنى المحبوب أرتحل

ماذا يثبط فى بغداد معتزمى (وليس لى ناقة فيها ولا جمل)
ليلى الحقيقة فى حلى ومرتحلى هى الخيال، هى السلوى، هى الأمل
ما فى هواى لليلى من مصانعة أليس تأمرنى ليلى وأمتثل

اندفاعات(١)

ياموطنا قد ذبت فيه غراما أهدى اليك تحية وسلاما
لولاك لم أك فى الوجود ولم أشم بلج الصباح واسمع الأنغاما
أفديك ياوطن نشأت بأرضه ومرحت فيه يافعا وغـلاما
ما كنت إلاّ روضة مطلولة تحوى الورود وتفتق الأكماما
غازلت منها فى الغدو بنفسجا وشممت منها فى الأصيل خزاما
وسعدت العب فوق أرضك ناشئا وشفيت شيخا لايطيق قياما
لك قدغضبت وفى رضاك حملت أن تنتابنى نوب الزمان جساما
وسمعت من ناس شرير طبعهم كلما على نفسى وقعن سهاما
لى فيك ياوطنى الذى قد ملّنى حب يوارى فى الرماد ضراما
أما المنى فقد انتهت ومضاتها الاّ بصيصا لا يزيل ظلاما

٭ ٭ ٭

من ثقفته الحـادثات ملة يلقى الخطوب بصدره بساما
كبر الألى من طيب أعراق لهم كانوا اذا لؤم السفيه كراما
أنا للأفاعى غير مكترث وإن تركت بنفسى نابها آلامـا
بالذل لا أرضى وان سلمت به روحى وارضى بالحمام زؤاما
حى الذين اذا الهوان أصابهم تخذوا الاباء من الهوان عصاما
مافى المساواة التى نشدو بها ان الوهاد تطاول الآكاما
يا قومنا لا نفع فى أحلامكم نخذوا الحقائق وانبذوا الأحلاما

---

(١) الأوشال : ص ١٧٤

اخشى عليكم فى الحياة تدهورا فيه الرؤوس تقبل الأقداما
جهل الذين على قديم عولوا إن الزمان يغير الأحكاما
وأشد خلق الله جهلا أمة نقضت فظنت نقضها ابراما

* * *

أنى لاربأ أن أكون مجنة فى الحادثات ولا أكون حساما
ولقد يريد الظالمون لنفسهم بالظلم من شر يلم سلاما
وتشذ آراء فكم من مجرم ما ان يرى اجرامه إجراما
ولقد يغالى المرء فى آرائه حتى يثير عدواة وخصاما
ولربما أطرى افاعيلا له كانت إذا استقرأتها آثاما
لايستطيع بناء مجد صادق من لا يكون لكاذب هداما
هل يخرق العادات فيما جاءه الا جرىء لا يخاف ملاما
أإذا نجحت حمدت نفسك مطريا واذا فشلت تعاتب الأياما

* * *

إن الحياة وغى وقد ينبو بها سيف الشجاع ولا يكون كهاما
ولرب حرب تختفى أبطالها تحت الستار ولا تثير قتاما
ذم التعصب فى الجدال فانه سقم يجر وراءه اسقاما
ما أنت إلا ذرة منسية فى بقعة من عالم يترامى
كون تحركه نواميس له كانت له منذ القديم لزاما
تشكو به الأيام مثلك أسرها فمن السخافة لومك الأياما
فيه الشموس كثيرة فمن الذى فى البدء أضرم نارها اضراما

* * *

من يحسب الأوهام منه حقائقا يجد الحقائق كلها أوهاما
أو كان من داء به يصدى فقد يرد الخضم ولا يبل أواما
لاينكر الحق المبين سوى امرىء يعمى وشر منه من يتعامى

ولقد يكون الفوز حلفا للألى غمدوا السيوف وجردوا الأقلاما
كم ريشة فى كف أروع بددت جيشا تدجج بالحديد لهاما

° ° °

ظن ابن آوى أنه أسد الشرى حتى اذا لقى الهزبر تحامى
لا تسخرون فلابن آوى عذره ان لا يكون القسور الضرغاما

° ° °

ولقد جعلت لى الطبيعة قدوة وتخذت منها فى الحياة اماما
ما أن أروم وأن زجتنى رغبة ماليس يمكن أن يكون مراما
السيل اماعب مندفعا فلا يدع الوهاد ويغمر الآكاما

° ° °

ولقد أقول الشعر منفعلا به ولقد أنبه بالقريض نياما
بسمت بنات الشعر حين شببن لى ففطمتهن فما أردن فطاما
أسفى على الادب الذى يبغون أن يكسوه من عصر خلا اهداما
أخذت تنغص راحتى ضوضاؤهم من غير أن يلق الجدال نظاما
فوددت لو أن إن الذين تجادلوا جعلوا الوفاق على الصواب ختاما
أنا لا أحب سوى مكان هادىء أما الزحام فلا أريد زحاما

اسمحوا لى [١]

قالها لما ثار عليه المتعصبون على نشر قصيدته

« ثورة فى الجحيم »

ألا فاسمحوا لى أن أقول موضحاً   لما بيننا يا أهل بغداد من لبس
فان تمنعونى أن أفوه بحجتى   فكيف أجيبونى أدافع عن نفسى

فى الجلد والعظم

نظرت فكان الحب أول ماجنى   على وكان الدمع من مقلتى يهمى
سرى من فؤادى نافذاً فى حشاشتى   إلى أن مشى فى الجلد منى والعظم

لا تكونى مغرورة

أنا يا شمس ذرة فوق أرض   هى فى سيرها عليك تطوف
لا تكونى مغرورة إنما مثلك فى   أجواز الفضاء ألوف

كأنها تبسم

جميله فى صفحات الليل هذى الأنجم
كأنها فى وجه من يبصرها تبتسم

استأصلوه وقبلوه [٢]

خافوا لسان أخى الشعر الحر فاستأصلوه
وبعد ما استأصلوه من حلقه قبلوه

---

(١) الأوشال : ص ٢٣٤
(٢) الأوشال : ص ٢٣٥

— ٥ —

المختار من نثره

(١) التجديد فى الشعر — من مقدمة ديوانه الأوشال :

وأما التجديد فهو أن ينظم الشاعر عن شعور عصرى صادق يختلج فى نفسه لا عن تقليد، وذلك ما كان يفعله شعراء الجاهليه، وإن كان شعورهم محدوداً، فالجديد موجود فى القديم وفى الحديث إذا لم يسبقه أحد إليه. والأذواق الراقية هى التى تستحق أن تكون حكماً فى الشعر. ورب ذوق منحط لا يستحب من الشعر إلا ما كان غثا بارداً يناسب مستواه فهذا لا يؤخذ برأى صاحبه.

كأن فيها المعانى من برودتها موتى عليها من الألفاظ أكفان

ومنهم من لا يحسب من الشعر إلا ما كان مصورا للعاطفة، وهذا تضييق لمجال الشعر، بل الشعر كل ماهز السامع سواء كان عاطفة أو وصفا أو فلسفة، وأروع الشعر فى الغرب اليوم ما بنى على العلم. ولم يشتهر الخيام والمتنبى والمعرى إلا بشعرهم الفلسفى وهو الذى يجرى على الألسنة كالأمثال.

والشعر فى القصيدة اندفاعات فى الفكر كالأمواج يعقب بعضها بعضاً، فاستحب أن لا يغير الشاعر منها إلا ما كانت فيه صلة ضعيفة فذلك أقرب إلى الطبيعة.

ورب شعر يجعله صاحبه نموذجا للتجديد وهو إلى التقليد أقرب، وأرى أكثر الذين يحسبون أنهم مجددون يخطئون الصواب فى الألفاظ وتراكيبها وعذرهم أنهم لا يريدون التقيد بالألفاظ لأن ذلك يضيق عليهم مجال المعانى والمعانى هى المطلوبة، لا يدرون أن الألفاظ إذا كانت مغلوطاً فيها فهى لا تؤدى المعانى المقصودة، وهل تستخرج المعانى إلا من الألفاظ.

إذا ما نظمت الشعر فانظم مصورا   شعورك واستعمل من اللفظ أنقاه
فنى الشعر للمعنى إلى اللفظ حاجة   إذا اختل لفظ الشعر يختل معناه

والشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا توفرت فيه شروط ثلاثة : الأول أن يكون له استعداد ذاتى للشعر ، والثانى أن تغزر مادته فى اللغة والعلم ، والثالث أن يكون قد مارسه طويلا . والسبب فى أن أكثر الشباب تعوزه صحة التعبير وسلامة اللفظ هو كونه غـــير متسع فى اللغة أو قليل الممارسة للشعر ، والتوسع فى اللغة والممارسة المجدية يحتاجان إلى زمان طويل فلا يبلغ الحاجه منهما الشاب ، إلا بعد أن يكون قد فارق شبابه وقليل أولئك الشباب الذين تـكون خطواتهم واسعة توصلهم إلى الغايات قبل أن يفارقوا شبابهم .

(ب) كلمة فى الشعر : من مقدمة اللباب :

ما أكثر اختلاف المتأدبين فى الشعر وفى الجيد منه ، ولـكل أحد ذراع يقيسه بها ، فان وافقها عده حسنا ، وإن خالفها ظنه سيئاً . ولما كان مستوى الأكثرين عندنا فى الأدب منحطا ، لم يرضوا إلا ما وافق مقاييسهم من الأميال الرجعية . وهناك من لا يعجبه من الشعر إلا ما كان فى ألفاظه وأسلوبه تقليد لشعراء الجاهلية أو صدر الإسلام ، وإن كانت معانيه سخيفة لا صلة لها بالشعور العصرى . ومن لا يرضيه إلا ما كان فى معانيه تقليد لشعراء الغرب وإن كانت ألفاظه سقيمة وتراكيبه ركيكة . وبين أولئك وهؤلاء نفر قليل عددهم ، قوى حجتهم فضلوا ما جمع إلى حسن الألفاظ ومتانة التركيب شعورا عصريا يوائم ثقافة هـذا العصر وأبنائه المؤمنين بتطوره ، وهؤلاء هم فى الحقيقة المجددون .

أما التقليد فهو ذميم سواء كان تقليدا لشعراء العرب الأقدمين أو لشعراء الغرب المحدثين . فان لـكل أمة شعورا لا يتفق فى الغالب وشعور أمة أخرى . قد فرقت بينهما سنة الوراثة فى أجيال بعد أجيال كما أن الموسيقى عندهما لا تتفق .

والجديد من الشعر هو ما كان مشبعا بالشعور العصرى ، وكان لذلك الشعور تأثير فى شعور الآخرين يهيجه فيهم كأنه الكهرباء . وكانت ألفاظه بمثابة الأسلاك الموصلة لذلك الكهرباء مستوفية لجمال اللغة وموسيقى الوزن سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها . ولما كان التقليد تكرارا لشعور هو لغير صاحبه ، وكانت المبالغة ضربا من الكذب لاصلة لها بالشعور ، كانا وخيمين لا يهضمهما العصر الحاضر .

وأحسن الشعر فى نظرى ما استند إلى الحقائق أكثر من العواطف والخيال البعيدين عنها ، فكانت حصة العقل فيه أكثر من حصتهما . وفى الشعر القديم ولاسيما شعر العواطف منه ، كثير من الجيد الخالد ولكن تقليده اليوم غير حميد ، فهو صدى لصوت قد تقدمه فلا خير فيه . والفرق بين الشعورين القديم والجديد أن الأول ضيق لضيق معارف أصحابه والثانى متسع لسعة معارف أهله . ومن هنا تعرف أن ما يطلب من الشاعر العصرى أكثر مما يطلب من المتقدمين ، وأن ما يرفع هذا غير ما يرفع ذاك وإن كان كل منهما صادقا فى شعوره .

وللشاعر أن يجمع فى بعض قصيدة أكثر من مطلب ، بشرط أن يكون بين مطالبها صلة تربط حلقاتها المتعددة وأحسب أن هذا أقرب إلى طبيعة التفكير أو الاحساس فانهما لا يأتيان إلا فى صورة أمواج هى فورات النفس أو ثوراته كل يستقل منها عن الأخرى ، وتكون القصيدة حينئذ أشبه بباقة من مختلف الأزهار مع تناسق فى ألوانها .

وقد يختلف ما يشعر به شاعر عما يشعر به آخرون فى موضوع واحد ، فتقوم عليه قيامة هؤلاء ، ينقدونه رامين إياه بالسفه فى الرأى لا لشىء غير أنه شعر بما لم يشعروا به أو نظم فى طريقة لم يألفوها ، وهو بالإكبار أولى لأنه مبتكر أتى بما هو جديد . وهكذا كل مجدد هو غرض لسهام مخالفيه أو حاسديه وقد يسليه علمه أن العاقبة له .

الفهرس

	الصفحة
مقـــدمة :	ا
الفصل الأول : حياة الزهاوى وشخصيته	١ — ١٤
الفصل الثانى : الشعر عنده	١٥ — ٢٦
الفصل الثالث : فنون شعره	٢٧ — ٥٧
شعره السياسى	٢٩ — ٤٣
شعره الاجتماعى	٤٤ — ٥٧
الفصل الرابع : ثورة فى الجحيم	٥٨ — ٦٧
الفصل الخامس : آثاره ومصادر دراسته	٦٨ — ٧١
المختار من شعره	٧٣ — ١٣٧
المختار من نثره	١٣٨ — ١٤٠

T

S

Back

B



